

## التفسير الإشاري لآيات النصر والتمكين: دراسة تحليلية في آيات المدد الغيبي وتجليات

### ديوان الأولياء تاريخاً ومستقبلاً

م.م. محمد هاشم ظاهر عبد

جامعة كركوك / كلية علوم

Mohammedhashim@uokirkuk.edu.iq

#### المستخلص

تحصينا باطنيا بالاستغفار والانكسار لمنع تسلل داء العجب. وتوصي الدراسة في نهايتها بضرورة تبني المجاهد المعاصر لما يعرف بـ "فقه الجمع"<sup>(٣)</sup>، وهو الفقه الذي يوازن بين أقصى درجات الاعداد المادي والتكنولوجي من جهة، وبين كمال الشهود العرفاني وسقوط رؤية الفاعلية من جهة اخرى، مع احياء الرابطة الروحية بكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لاستنزال التأييد الالهي في اي مواجهات مستقبلية.

تعالج هذه الدراسة فجوة معرفية عميقة في العقل الاستراتيجي المعاصر، والذي اعتاد على قراءة ظاهري النصر والهزيمة من زاوية مادية عسكرية بحتة، متجاهلاً تماماً البعد الميتافيزيقي والفاعلية الروحية في حسم المعارك. وتتبلور مشكلة البحث في محاولة استقراء التفسير الإشاري<sup>(١)</sup> لآيات الجهاد والفتح، لفهم الكيفية التي يتدخل بها "ديوان الأولياء"<sup>(٢)</sup> واهل الحضرة في توجيه سير الاحداث. وقد اعتمدت الدراسة على تكامل منهجي يجمع بين الاستقراء والتحليل، مع الالتزام بمحدد مرجعي صارم يقتصر على مصنفات سادة التصوف والتفاسير الاشارية المعتمدة لاستجلاء زاوية نظرهم بدقة.

**الكلمات المفتاحية:** التفسير الاشاري، آيات النصر، ديوان الاولياء، المدد الغيبي، فقه الجمع، الافتقا، الولاية الباطنة.

ومن اهم النتائج التي خلص اليها البحث ان الانتصارات التاريخية الكبرى للامة (كالتحرير الايوبي، والفتح العثماني، ومعركة المنصورة) لم تكن لتتحقق لولا التلاحم العضوي بين القيادة العسكرية الظاهرة والولاية الباطنة الممدة. كما اثبتت القراءة الاشارية لسورة النصر ان الحفاظ على التمكين يتطلب

#### Abstract:

This study addresses a profound epistemological gap in contemporary strategic thinking, which typically analyzes victory and defeat from a strictly materialistic perspective,

(1). هو تأويل آيات القرآن الكريم بما وراء ظاهرها من إشارات قدسية and ignoring the metaphysical dimensions and spiritual agency in deciding battles. The research problem revolves around exploring the esoteric exegesis (Tafsir Ishari) of Quranic

verses related to Jihad and conquest to (2) مصطلح عرفاني أصيل يشير إلى مجلس باطني أو هيكلية روحية لصفوة أهل الله (كالغوث، والأقطاب، والأوتاد، والأبدال). ويعتقد

سادة التصوف أن الله يوكل إليهم بإذنه ومشيئته حفظ النظام الكوني<sup>(٣)</sup> مصطلح يعني الجمع بين استنفاد الأسباب المادية (الإعداد وتصريف بعض الأمور وإمداد الجيوش. ينظر: الشعراي، ١٩٩٧، العسكري) وبين التحقق بالمقامات الروحية (التوكل والفناء)، بحيث لا يجب أحدهما الآخر (ابن عجيبة، ١٩٩٩، ج ٢، ص ٣١٢).

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، وبعد:

فان المتابع لحركة التاريخ الاسلامي يلحظ بوضوح ان الانتصارات الفاصلة لم تكن مجرد ثمرة لتفوق عسكري او تخطيط لوجستي بحت، بل كانت في عمقها انعكاسا لتأييد غيبي ومدد الهي تحكمه سنن روحية دقيقة. الا ان العقل المسلم في العصر الحديث، وتحت ضغط الهزائم المتتالية وتأثره بالمناهج المادية الغربية، اصبح يقرأ الاحداث قراءة افقية تغفل تماما دور عالم الباطن في توجيه عالم الظاهر.

ومن هنا جاءت فكرة هذه الرسالة للعودة الى الموروث العرفاني، وتحديد التفسير الاشاري ومصنفات سادة التصوف، لمحاولة استكشاف وتأصيل ما يمكن ان نطلق عليه "فقه النصر الباطن". وهو نسق معرفي لا يلغي الاخذ بالاسباب، بل يضعها في حجمها الطبيعي، ويربطها بتصريفات ديوان الاولياء وتدخلات اهل الحضرة الذين جعلهم الله قنوات للمدد والتأييد.

#### مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتحدد مشكلة الدراسة في القطيعة المعرفية التي يعاني منها الفكر الاستراتيجي المعاصر تجاه التراث الصوفي، وانكاره المستمر للفاعلية الباطنية لاهل الله، مما جعل الامة تخوض معاركها مجردة من اي غطاء روحي.

وتتفرع عن هذه المشكلة الاساسية التساؤلات الآتية:

١. ما هو المفهوم الانطولوجي للنصر، وكيف يتحقق المدد الغيبي وفقا للتفسير الاشاري ونصوص القوم؟
٢. ما هو الدور الفعلي لديوان الاولياء في توجيه الانتصارات التاريخية الكبرى وتصريفها؟
٣. كيف نقرأ آيات الفتح قراءة اشارية تضمن لنا الحفاظ على التمكين وتجنب السقوط في فخ العجب؟
٤. ما هي خارطة الطريق العملية التي يحتاجها المجاهد المعاصر لاستجلاب المدد وتفعيل فقه الجمع؟

#### اهداف البحث:

١. ابراز التفسير الاشاري كمنهج اصيل قادر على تقديم قراءة حية ومستقبلية لآيات الجهاد.
٢. التدليل التاريخي على التلازم الوثيق بين القيادة العسكرية الظاهرة والولاية الباطنة.

understand how the "Council of Saints" (Diwan al-Awliya) intervenes in directing events. The study relies on a methodology combining induction and analysis, strictly limiting its primary sources to the foundational texts of Sufi masters and accredited esoteric commentaries.

A major finding of the research is that the Ummah's decisive historical victories (such as the Ayyubid liberation, the Ottoman conquests, and the Battle of Al-Mansurah) were achieved primarily through the organic cohesion between outward military leadership and inward spiritual sainthood. Furthermore, the esoteric reading of Surah An-Nasr demonstrates that maintaining power requires an inward fortification through seeking forgiveness to prevent the spiritual disease of vanity. Finally, the study recommends that modern combatants adopt the "Jurisprudence of Integration" (Fiqh al-Jam). This concept balances the highest levels of material and technological preparation with perfect spiritual awareness and the negation of self-agency, alongside reviving the spiritual bond through frequent prayers upon the Prophet (PBUH) to secure divine support in future confrontations.

Keywords: Esoteric Exegesis, Jurisprudence of Inner Victory, Council of Saints, Unseen Support, Jurisprudence of Integration, Spiritual Destitution.

المقدمة:

بناء على ما تقدم، انتظمت خطة البحث في مقدمة،  
واربعة مباحث رئيسية يتفرع عن كل منها ثلاثة مطالب،  
ثم خاتمة، وذلك على النحو الآتي:

- المبحث الأول: الاستمولوجيا العرفانية للنصر في التفسير الإشاري ومصنفات أهل الله.
- المبحث الثاني: التجليات التاريخية للمدد الغيبي وتأثير انظار أهل الحضرة.
- المبحث الثالث: معارج الاستحقاق وسبل استجلاب المدد في واقع الأمة المعاصر.
- المبحث الرابع: ثمرات التفسير الإشاري من خلوات التزكية الى جلوات التمكين.
- الخاتمة:
- قائمة المصادر والمراجع:

### المَبْحَثُ الأوَّل

الإبستمولوجية<sup>(٤)</sup> العرفانية للنصر: الماهية والكيفية

في التفسير الإشاري ومصنفات أهل الله

"يعرف ديوان الأولياء في الاصطلاح العرفاني بأنه مجمع الأرواح والنفوس القدسية التي أقامها الحق سبحانه لحفظ نظام العالم وتصريف شؤون الخلق بإذنه ومشيئته. وهذه الولاية ليست مجرد رتبة تشريفية، بل هي وظيفة تكليفية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم "الخلافة" في الأرض. ويؤكد الإمام الشعراني أن نظام هذا الديوان محكم الترتيب، حيث لكل رتبة من أهل النوبة<sup>(٥)</sup> (من الأقطاب والنجباء والأبدال) دور مناط به في حفظ ثغور الأمة المعنوية والمادية (الشعراني، ١٩٩٧، ص ١٤٥)."

يشكل هذا المبحث حجر الزاوية في بناء "فقه النصر الباطن"؛ إذ ينطلق من قاعدة صوفية راسخة

٣. صياغة رؤية سلوكية للجبل المعاصر توضح كيفية بناء القابلية الروحية لاستحقاق نصر السماء.

### منهجية البحث ومحدداته:

اقتضت طبيعة هذا البحث الاستعانة بمنهجية متكاملة؛ حيث اعتمدت على المنهج الاستقرائي لتتبع الآيات وتفا سيرها الإشارية ونصوص كبار العارفين. واستخدمت المنهج التحليلي لتفكيك رموز هذه النصوص واستخراج السنن منها. ولتأكيد الجانب التطبيقي، تم توظيف المنهج التاريخي لربط تلك القواعد بالوقائع الميدانية الفاصلة.

ولضبط مسار الدراسة وحمايتها من أي استطرادات أو تأويلات خاطئة، ألزمت نفسي في هذا البحث بمحددتين صارميين:

١. المحدد الأول (المرجعي): الاقتصار التام على مصادر

السادة الصوفية وتفا سيرهم المعتمدة دون غيرها، وذلك لضمان صفاء الرؤية العرفانية وعدم خلطها بالتفسير الظاهرية أو التحليلات العسكرية البحتة.

٢. المحدد الثاني (العقدي) - نفي الاستقلالية واثبات

التبعية): نظراً لكون هذا البحث يغوص في المساحات الغيبية ويتناول آليات تدخل "ديوان الأولياء" وأهل الحضرة في سير المعارك، وجب التقرير عقائدياً ومنهجياً بأن هذا التدخل الباطني لا يعني بحال من الأحوال اثبات "الاستقلالية" لهم في الفعل أو التصرف في الكون من دون الله. بل يؤكد البحث، توافقاً مع عقيدة التوحيد الصافية، أن الأولياء والعارفين هم محض "قنوات" و"اسباب" تجري من خلالها مشيئة الله وإرادته. فالله جل جلاله هو مسبب الاسباب والفاعل الأوحد، والنصر منه وحده، وما كرامات الأقطاب وتصريفاتهم وامدادهم للجيوش الا تجل لتبعية مأذون بها وكرامة اجراها الله

على ايديهم ببركة اتباعهم وصدق افتقارهم. وبذلك ينتزه البحث تماماً عن أي شبهة تعطل الاسباب المادية العارف عن طريق الكشف والإلهام والذوق الروحي، في مقابل المعرفة المادية أو العقلية المحضنة. (صليبا، ١٩٨٢، ج ١، ص ١٧).

(٥) هم طائفة من الأولياء في ترتيب الديوان، يُنسب إليهم حفظ الثغور وتصريف أحوال الأقاليم، وسموا بذلك لأنهم يتناوبون على الخدمة والحفظ ينظر: (الشعراني، ١٩٩٧، ج ١، ص ١٤٨)؛

### هيكلية البحث وتقسيماته:

(٤)

الإبستمولوجية مصطلح فلسفي يقصد به (نظرية المعرفة). والمراد بالإبستمولوجيا العرفانية في هذا البحث: المعرفة التي يستقيها البحث تماماً عن أي شبهة تعطل الاسباب المادية العارف عن طريق الكشف والإلهام والذوق الروحي، في مقابل المعرفة المادية أو العقلية المحضنة. (صليبا، ١٩٨٢، ج ١، ص ١٧).

(٥) هم طائفة من الأولياء في ترتيب الديوان، يُنسب إليهم حفظ الثغور وتصريف أحوال الأقاليم، وسموا بذلك لأنهم يتناوبون على الخدمة والحفظ ينظر: (الشعراني، ١٩٩٧، ج ١، ص ١٤٨)؛ (اليافعي، ١٩٩٧، ج ٢، ص ١١٥).

الوحيد لاستنزال أنوار التأييد؛ إذ كيف ينصر الله قلباً محشواً بأصنام الهوى والتعلق بالأغيار؟<sup>(٧)</sup>.

وقد تجلّى هذا المعنى بأبهى صورته في التفسير الإشاري لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]؛ حيث نقل الإمام سهل بن عبد الله التستري دلالة الآية من الجغرافيا المكانية إلى الجغرافيا الروحية قائلاً: "الذين يلونكم من الكفار: هي النفس، فإنها أقرب الأعداء إليك، ومقاتلتها بمخالفتها، والغلظة عليها بقمع شهواتها"<sup>(٨)</sup>.

ويؤكد الإمام ابن عجيبة الحسني هذا المنحى الدقيق، معتبراً أن النصر على أعداء الظاهر مرهون كلياً بالانتصار على أعداء الباطن، فيقول في إشارات: "فمن قهر أعداء باطنه قهر أعداء ظاهره، ومن قهره أعداء باطنه، سلط عليه أعداء ظاهره"<sup>(٩)</sup>. فالتزكية إذن هي الماهية الأولى والمحطة الإلزامية لاستقطاب أنظار العناية.

## ٢. الفناء في "توحيد الأفعال" وسقوط دعوى القوة:

تتدرج ماهية النصر عند أهل الحضرة لتبلغ ذروتها السلوكية في مقام "الفناء"<sup>(١٠)</sup>؛ وهو أن يتجرد المجاهد من رؤية فعله، ويشهد أن الله هو الفاعل الأوحد. وهنا يبرز التفسير الإشاري لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، كأعظم دستور عرفاني يحدد ماهية النصر وتدخل الغيب.

مفادها أن عالم الظاهر (الشهادة) ما هو إلا مسرحٌ تتجلى عليه أفعال عالم الباطن (الغيب). ولتأسيس هذه القاعدة، لابد من تحرير ماهية النصر، وتجريدها من القوالب المادية البحتة، للوصول إلى حقيقتها الأنطولوجية (الوجودية) في ميزان أهل الله، تمهيداً لفهم الكيفية التي يتدخل بها الأقطاب لاستنزال المدد وتوجيه المعارك.

**المَطْلَبُ الأوَّل: المَاهِيَةُ البَاطِنَةُ لِلنَّصْرِ.. الانكسار، والفناء، ومَعْرَكَةُ "الجِهَادِ الأَكْبَر"**

إن المتتبع لأدبيات سادة التصوف وتقاسيرهم الإشارية يجد إجماعاً قاطعاً على أن "النصر الحقيقي" لا يبدأ في ساحات التحام الجيوش، بل يبدأ وينتهي في "محراب القلب". فالنصر في الماهية العرفانية ليس مجرد سحق لعدو خارجي، بل هو في جوهره انكسارٌ لـ "النفس الأمارة"، وفناءٌ عن دعوى "الحول والقوة"، وشهودٌ مطلقٌ لفاعلية الحق تبارك وتعالى.

"إن التفسير الإشاري لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)، يتجاوز المعنى الظاهري للمساندة الإلهية ليشير إلى حالة 'الفناء عن السبب بالمسبب'. فالمجاهد الذي تحقق بمقام الفناء لا يرى لنفسه قوة ولا حولاً، بل يرى يد القدرة الإلهية هي المحركة له. ومن هنا يفيض المدد الغيبي<sup>(١١)</sup> عبر وسائط الولاية (ديوان الأولياء) لتثبيت الأقدام وتحقيق النصر (ابن عجيبة، ١٩٩٩، ج ٢، ص ٣١٢).

## ١. أولوية العدو الباطن وشرطية التزكية (الجهاد الأكبر):

يقرر حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي أن (٧) أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، كتاب النصر الظاهر ممتنع سنة ما لم يسبقه نصر باطن على رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج ٣، الرعونات والشهوات، مبيناً أن تصفية مرآة القلب هي المعبر ص ٦٤ وما بعدها

(٨) لتستري، سهل بن عبد الله. تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل

عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٤م)، ص ٧٨.

(٩) أحمد بن محمد الحسني بن عجيبة، البحر المديد في تفسير

القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، (القاهرة: مطبعة حسن

عباس زكي، ١٩٩٩م)، ج ٢، ص ٥٣٤.

(١٠) من أعلى مقامات السلوك الصوفي، ويعني غياب السالك عن رؤية أفعاله وحوله وقوته، وشهوده التام بأن الله تعالى هو الفاعل الأوحد في الوجود. وفي الجهاد: يعني ألا يرى المجاهد سيفه، بل يشهد بقلبه أن الله هالتو الضارب والناصر حقيقة.

(٦) هي القوة الإلهية والفيوضات الروحية التي تؤيد المؤمنين وتثبت

أقدامهم في المعارك، وتتجلى غالباً في صور خوارق العادات أو

السكينة القلبية. ينظر: الزبني، ١٩٦٢، ج ١، ص ٤٥؛ والياضي،

١٩٩٧، ج ٢، ص ١١٠

إن هذا "الافتقار المطلق" والانكسار لله، هو "الشفيرة الروحية" التي تجذب أنظار الأقطاب، وتجعلهم يوجهون همهم لنصرة هذا المفتقر بمدد الله وتأييده، إذ لا يتنزل رضاهم إلا على القلوب المنكسرة المتبرئة من حولها وقوتها. **المطلب الثاني: ميكانيزمات المدد الغيبي.. ديوان الأولياء وهندسة التصريف الباطني في ساحات الوعى**

بعد تقرير الماهية الباطنة للنصر والمتمثلة في مقامي "الافتقار والفناء"، ينتقل النسق العرفاني لتفكيك "الكيفية" التي ينتزل بها التأييد الإلهي في عالم الشهادة. إن الفهم الصوفي يُقرر بقاطع الكشف والاستدلال أن العناية الإلهية لا تنتزل في الأكوام عشوائياً، بل لها "قنوات" و"قوابل" ارتضاها الحق تبارك وتعالى لتكون محالاً نظره ومجالى قدرته؛ وهؤلاء هم "أهل الحضرة" وورثة السر النبوي من الأقطاب والأولياء، الذين يشكلون في الباطن ما يُعرف بـ "ديوان الأولياء". فكيف يتدخل هؤلاء السادة في حسم المعارك وتوجيه الجيوش؟

#### ١. القاعدة الأنطولوجية<sup>(١٥)</sup> للتصريف (السر العرفاني لحديث الولي):

تتأسس الفاعلية الغيبية لأهل الحضرة في تصريف شؤون النصر على أصل شرعي قطعي، اتخذه سادة العرفان دستوراً للولاية، وهو الحديث القدسي العظيم: (... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا...)<sup>(١٦)</sup>.

لقد قرأ سادة التصوف هذا النص قراءةً نوقيةً تُثبت "الفاعلية الممتدة" للولي بالنيابة لا بالاستقلال. فالقطب عندما يُوجه همته، أو يمد جيشاً ببركته، فهو لا يفعل ذلك بحوله وقوته البشرية المحدودة، بل لأنه بلغ مقام "الفناء"، فصارت قدرة الحق سبحانه هي الفاعلة من خلاله.

يقول الإمام أبو القاسم القشيري في إشارته لهذه الآية مبيناً سقوط نسبة الفعل للعبد: "أثبت له الرمي في الظاهر، ومحاه عنه في الحقيقة، فالعبد مُكْتَسِبٌ، والربُّ سُبْحَانَهُ خَالِقٌ.. وما رميتَ بِقُوَّتِكَ إذ رميتَ بِكَسْبِكَ، ولكنَّ الله رمى بِقُدْرَتِهِ، فإذا كانت القُدْرَةُ لِحَقِّكَ كان التأثيرُ لِحَقِّكَ"<sup>(١١)</sup>.

وبهذا الفهم الدقيق، يصبح المجاهد، أو القطب الممدد بالغيب، مجرد "مخلى" (محل تجلٍ) تجري فيه وتتفد منه قدرة الحق. وهو ما يؤكد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، مبيناً أن النصر ما هو إلا تجلٍ لاسم الله (الناصر) واسمه (القهار) على قلب العبد المفتقر، فإذا فني العبد عن إرادته، ظهرت فيه آثار الأسماء الإلهية، فكان الله هو الناصر والضارب<sup>(١٢)</sup>.

#### ٣. الانكسار والافتقار.. بوابة استجلاب أنظار ديوان الأولياء:

إن الكيفية الأولى لاستنزال المدد والنيل برضا أهل الحضرة، لا تتمثل في إظهار القوة والكثرة، بل في إظهار "الذلة والافتقار" التام. لقد صاغ سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني (الباز الأشهب) هذه الماهية كقانون صارم لاستحقاق النصر، حين خاطب السالكين طالباً منهم الانسلاخ التام من الأسباب لاستقطاب نظر العناية، قائلاً: "أخرج من نفسك وتبرأ منها.. وردَّ الكلَّ إلى الله عز وجل.. فإذا فنيت عنك، أثبتك فيه، فكننت به"<sup>(١٣)</sup>.

ومن ذات المشكاة، يُقرر القطب سيدي أحمد الرفاعي أن جيوش الأعداء لا تُهزم بالخيل والغرور بل بالذلة على عتبة الربوبية، حيث يقول في قواعده السلوكية: "طريقي ذلٌّ وانكسار، وافتقارٌ واضطرار... فما دخلتُ على الله من بابٍ أوسع من باب الذل والافتقار"<sup>(١٤)</sup>.

(١١) عبد الكريم بن هوازن لقشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠٠٠م)، ج١، ص ٥٨٦.

(١٢) محيي الدين محمد بن علي ابن عربي، الفتوحات المكية، (بيروت: دار صادر، د.ت)، السفر الأول، الباب الثالث والسبعون في أسرار الأسماء الحسنى، ج٢، ص ١٣٢.

(١٣) عبد القادر بن موسى الجيلاني، فتوح الغيب، تحقيق: فريد للنصر هنا: حقيقة النصر وجوهره الوجودي في عالم الغيب بميزان المزيدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م)، المقالة الرابعة، أهل الله، قبل أن يتجلى كحدث عسكري مادي في عالم الشهادة. ص ٢٤.

(١٤) أحمد بن علي الرفاعي، البرهان المؤيد، تحقيق: عبد الغني (صحيح البخاري)، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم محمود، (دمشق: دار الطباع، ط٢، ٢٠٠٥م)، ص ٧٨. (٦٥٠٢).

(١٥) الأنطولوجيا هي (علم الوجود). ويقصد بالماهية الأنطولوجية

(١٦) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر

"لا يقوم التمكين في الرؤية الإشارية على الفصل بين التدبير العسكري والمدد الروحي، بل على تلاحمهما. فبينما يشتغل القائد بتنظيم الصفوف (الأخذ بالأسباب)، يشتغل أهل الحضرة بالدعاء والتوجيه القلبي. وهذا ما يطلق عليه 'فقه الجمع'، حيث يكون المدد الباطني هو المحرك الخفي الذي يبارك في الأسباب القليلة لتنتج آثاراً عظيمة (النبهاني، ١٩٦٢، ج١، ص ٤٥)".

٣. التجليات الغوثية في ساحات المواجهة (كشوفات الدسوقي والبديوي أنموذجاً):

تتجلى أوضح تطبيقات "التصريف الغيبي" في المعارك عند القطبين الجليلين: سيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي أحمد البديوي، حيث حفلت مصنفاتهم ومقاماتهم بإشارات دقيقة حول كيفية إمداد جيوش المسلمين بالولاية الباطنة.

لقد كشف العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (أبو العينين) عن طبيعة هذا الإمداد، مبيناً أن أهل الحضرة يحضرون المعارك بأرواحهم وهمهم، فيلقون الرعب في قلوب الأعداء، ويثبتون أقدام المؤمنين. ويخاطب مريديه موضعاً سر هذا الحضور الدائم: "أنا بيد الله تعالى سيفٌ قاطع... وما من جيشٍ يخرج إلى عدوٍ إلا وأنا - بإذن الله - حارسه من أمامه ومن خلفه، أردُّ عنه سهام الأعداء، وألقي الرعب في قلوبهم" (٢١). هذا النص يُشرح بدقة آلية التدخل: حماية صفوف المؤمنين بمدد الهمة (السكينة والثبات)، والتفكيك الباطني لصفوف الأعداء قبل التحام الظاهر.

ويتطابق هذا الكشف مع الميراث الروحي للقطب سيدي أحمد البديوي (شبح العرب)، الذي عُرف في التراث العرفاني بـ "مُجاب الدعوة في الميادين" و"صاحب المدد السريع". فقد تواترت مآثورات التصوف في بيان تصريفه الباطن لإمداد جيوش المسلمين وفك أسرارهم، بقدرة تخترق حجب المسافات والأسباب المادية. يُعلق الإمام عبد الوهاب الشعراني على هذا المقام مبيناً كيفية تدخله لنجدة

يُفكك الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي هذه الآلية في مقام "التصريف"، موضحاً أن الولي المتحقق لا يملك من الأمر شيئاً استقلالاً، بل يمرر الفعل الإلهي عبر مقامه، فيقول: "فإن العبد إذا فني عن مراده في مراد سيده، كان الحقُّ سمعه وبصره ويده، فلا يكون بطشه حينئذٍ بطش مخلوق، بل هو بطشٌ حقانيٌّ ساريٌّ في صورة العبد، فتتفد همته في الأكوام نفوذ إرادة الحق" (١٧). وبهذا الفهم الدقيق، تكون أنظار أهل الحضرة هي المنافذ الفعلية لتدقق القدرة القهارة في المعارك.

٢. ديوان الأولياء وسلاح "الهمة" (١٨) من الخلوات:

أجمعت كشوفات سادة العرفان على وجود هيكلية باطنية تحفظ التوازن في الأكوام وتُدبر بإذن الله دفة المدد، وتُعرف بـ "ديوان الأولياء" (والذي يضم الغوث، والأئمة، والأوتاد، والأبدال) (١٩). وهؤلاء الأقطاب ليسوا بمعزل عن هموم الأمة ومعاركها، بل هم العصب الروحي الذي يُمدُّ قادة الجيوش بالثبات والنصر.

ولقد لخص سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني (الباز الأشهب) هذه الكيفية العظمية، مُبيناً كيف يمد أهل الحضرة الجيوش بالأنفاس والهمم من خلواتهم دون الحاجة لقطع المسافات المادية، قائلاً في إحدى فتوحاته: "إن لله عبادةً إذا أرادوا شيئاً أرادها الله... يجلسون في صوامعهم، وتطوف أرواحهم في الملكوت، يكسرون جيوشاً، وينصرون أمماً، وما تحركت منهم جارحة" (٢٠). إنها "الجنديّة الروحية" وسلاح "الهمة" الذي يسبق ويؤجّه الجنديّة الظاهرة.

(١٧) محيي الدين محمد بن علي ابن عربي، الفتوحات المكية، (بيروت: دار صادر، د.ت)، السفر الثاني، الباب الرابع والتسعون في معرفة أسرار الأنفاس، ج٢، ص ٣٨٠.

(١٨) قوة روحية باطنية يمنحها الله للعارف الصادق، يستطيع من خلالها توجيه طاقته للتأثير في الواقع أو نصرته الجيوش بإذن الله دون استخدام الجوارح المادية، وهي بمثابة السلاح الخفي للأقطاب في المعارك. فقه الجمع

(١٩) للتوسع في بيان هيكلية ديوان الأولياء وتصريفهم، يُنظر: السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر. عوارف المعارف، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣م)، ص ٦٨-٧٠.

(٢٠) عبد القادر بن موسى الجيلاني، الفتح الرباني والفيض (٢١) إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي، الجواهر المضيفة في المناقب الرحماني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٩م)، المجلس الدسوقي، تحقيق وتخريج: أحمد عز الدين عبد الله، (القاهرة: مكتبة الحادي والأربعون، ص ١٦٢).

يؤسس سيد الطائفة، الإمام أبو القاسم الجنيد البغدادي، قاعدة متينة لفهم هذا التجلي الجلاي؛ مبيناً أن النصر الحقيقي لا يُشترط فيه دفع البلاء الظاهر، بل هو "الثبات اليقيني" حال نزوله، والرضا التام بمراد الحق دون التفات للحظوظ الدنيوية أو النجاة المادية. فالنصر عند الجنيد يكمن في مقام "الصحو" والمكابدة، حيث يظل العارف بكلية مع الله.

يوضح الجنيد هذه الماهية مشيراً إلى أن الصدق يُختبر في البلاء، وأن الانتصار الحقيقي هو الاستسلام لمراد المصّرّف، فيقول: "الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة... وإنما يُبتلى المؤمن بالبلاء ليُعلم مدى تجرده للحق من حظوظه"<sup>(٢٤)</sup>. وبناءً عليه، فإن المجاهد الذي يثبت في المعركة مستمسكاً لجلال مراد الله فيه بالقتل، قد أحرز "نصر الباطن"؛ إذ فنيت إرادته في إرادة الحق، وهذا أعظم من نصر الظاهر الذي قد يورث العُجب. فالنصر هنا هو بقاء القلب شاهداً لمولاه لحظة فناء الجسد.

## ٢. الشهادة كاعتناق و"فتح ميتافيزيقي" (التجربة الحلاجية):

تصل هذه الفلسفة العرفانية للنصر إلى ذروتها القصوى في التجربة الروحية لقطب الولاية أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج. إن قراءة "مأساة الحلاج" من منظور صوفي تكشف أنها لم تكن هزيمة أمام جلاديه، بل كانت "مشهد انتصار" اختاره بإرادته الحرة حباً وشوقاً لالتحاق بالحضرة الإلهية.

لقد رأى الحلاج أن بقاءه في قفص "الناسوت" هو الحجاب الأكبر المانع من كمال الشهود، فكان "القتل/الشهادة" هو بوابته لكسر هذا الحجاب والانتصار للروح. وفي لحظة إعدامه المروعة للظاهر، كان الحلاج يعيش أقصى درجات الفتح والابتهاج بنصره الباطن، مناجياً ربه بكلمات توضح هذا المعنى، وداعياً لقاتليه: "إلهي، هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك... فاغفر

من ارتبطت قلوبهم بالحضرة: "ومن كراماته أن الله تعالى يُجري على يديه الغوث والمدد للمنكسرين في الحروب، فما توجه إليه قلبٌ غازٍ مضطر إلا أمدّه الله ببركة همة سيدي أحمد، لأنه أسقط حظوظ نفسه، فصارت حركاته كلها نصرة لدين الله"<sup>(٢٢)</sup>.

إن الكيفية الجوهرية لاستتزال النصر إذن تتلخص في "فقه التوجه". فالجيش الذي يغتر بكثرتة، وتُحجب عنه القيادة الروحية الباطنة، يُحرم من أنظار ديوان الأولياء. أما الجيش الذي تتعقد رأيته على الافتقار، وتتصل قلوب جنده بالسند المحمدي من خلال وراثته، فإنه يُصبح "بؤرة نورانية" تستقطب أنظار الأقطاب، فتتنزل بتوجيههم الملائكة، وتتوالى الإمدادات التي تقلب موازين القوى المادية.

**المطلب الثالث: ميتافيزيقياً "الشهادة" .. النصّر المطلق للروح وكسر حجاب الناسوت<sup>(٢٣)</sup> (قراءة في فلسفة الجنيد وتجربة الحلاج)**

يبرز في دراسة "ميتافيزيقيا النصر" إشكالاً ظاهري طالما استوقف العقل المادي: إذا كان أهل الحضرة يملكون حق "التصريف" وإمداد الجيوش، فلماذا تنتهي بعض المواجهات بمقتل المجاهدين أو استشهاد كبار العارفين؟

للإجابة على هذا الإشكال، يرتقي النسق العرفاني بمفهوم "النصر" إلى أفق يتجاوز ثنائية (الغلبة والهزيمة) المادية، ليقرر أن "الشهادة" والفناء الجسدي في سبيل الحق ليسا انكساراً، بل هما "الفتح المطلق" والانتصار الأسمى للروح على قيد "الناسوت" (الكثافة البشرية)، للعبور نحو فضاء "اللاهوت" (التجلي الإلهي والمشاهدة).

## ١. ثبات العبودية في مواطن البلاء (مدرسة الإمام الجنيد):

(٢٢) عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، الطبقات الكبرى (لوائح الأنوار في طبقات الأخيار)، تحقيق: خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م)، ج١، ص ١٨٣.

(٢٣) (الناسوت) يعبر عن الطبيعة البشرية الكثيفة وعالم المادة والجسد والقيود. و(اللاهوت) يشير إلى عالم الغيب والتجليات الإلهية<sup>(٢٤)</sup> عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم اللطيفة. والعبور من الناسوت إلى اللاهوت بالشهادة هو تحرر الروح التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: من قصص الجسد لتشهد أنوار الحق).

عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم اللطيفة. والعبور من الناسوت إلى اللاهوت بالشهادة هو تحرر الروح التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، دبت)، ج٢، ص ٤١٢.

بنظرةٍ وتأييدٍ من ديوان الأولياء، لم يُهزم، بل اختطف إلى حضرة القدس في أبهى صور الفتح والتمكين.

من نافلة القول نرى أن القواعد الإستمولوجية (المعرفية) لـ "فقه النصر الباطن". لقد تجرد النصر من دلالاته المادية ليتأصل في العرفان كحالة من (الفناء، والافتقار، والتركية). وتبينت لنا (الكيفية) التي يُصَرَّف بها "ديوان الأولياء" وأهل الحضرة أمادهم الغيبية لحسم المعارك بسلاح "الهمة"، وصولاً إلى إثبات أن النصر قد يتحقق بأرقى درجاته عبر بوابة "الشهادة والمشاهدة" كما قرر الجنيد والحلاج. هذه القواعد النظرية الصلبة تفتح الباب على مصراعيه للانتقال من "التأصيل" إلى "التطبيق التاريخي".

### المَبْحَثُ الثَّانِي

#### التَّجَلِّيَاتُ النَّارِيخِيَّةُ لِلْمَدَدِ الْغَيْبِيِّ.. أُنْزَارُ أَهْلِ الْحَضْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِنْتِصَارَاتِ الْكُبْرَى

بعد أن أرسى المبحث الأول القواعد الإستمولوجية لـ "فقه النصر الباطن" وآليات التصريف الغيبي، ينتقل هذا المبحث من فضاء التنظير العرفاني إلى فضاء المشاهدة التاريخية. فالسنن الإلهية التي وضعها سادة التصوف ليست تجريدات فلسفية معزولة عن الواقع، بل هي قوانين فاعلة تجلت بأبهى صورها في الانتصارات الفاصلة للأمة. وتأسيساً على القاعدة الصوفية (لا قيادة ظاهرة منتصرة بلا ولاية باطنة مُمدَّة)، نستطِق في هذا المبحث مرويات التاريخ عبر العدسة العرفانية؛ لنثبت أن قادة الفتوحات الكبرى كانوا ثمرةً لتربية الخلوات، وأن سيوفهم في ميادين الوعى كانت تتحرك بمددٍ وهميةٍ من الأقطاب وأهل الحضرة.

#### المَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْجُدُورُ الرَّوْحِيَّةُ لِلتَّحْرِيرِ الْأَيُّوبِيِّ.. مَدَدُ الْقُطْبِ الْجِبْلَانِيِّ وَهَنْدَسَةُ جِبِلِّ النَّصْرِ

يُمثل انتصار حطين وتحرير بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي أنموذجاً فذاً لتكامل (الجلوات العسكرية) مع (الخلوات الروحية). إن القراءة الظاهرية للتاريخ تكفي بتعظيم عبقرية صلاح الدين، لكن القراءة العرفانية تغوص في الجذور لتكشف أن هذا النصر كان استجابةً إلهية لـ "مشروع تجديدي روحي" قاده في الخفاء والعلن قطب وقته الغوث سيدي عبد القادر الجبلاني (الباز

لهم... فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا"<sup>(٢٥)</sup>. هذا التجلي السامي يؤكد أن النصر العرفاني يتحقق بـ "الكشف والمشاهدة"؛ فالحلاج انتصر حين رأى وجه الحق من وراء قسوة الجلال، وهُزم قاتلوه حين حُجِّبوا بالأسباب عن رؤية المُسَبِّب.

### ٣. أدب الانتصار بالدم (قراءة في وثيقة أخبار الحلاج):

لتعميق هذا الفهم، تُعدُّ المدونات المباشرة لتلك التجربة -وأهمها المخطوط التاريخي (أخبار الحلاج) الذي دونه مريدوه والمقربون منه- مرجعاً أصيلاً لرصد كيفية تحول "الذبح" إلى "عرس روحي ونصر مبين".

يصف "صاحب كتاب أخبار الحلاج" اللحظات الأخيرة لشيخه، مبيناً كيف كان يستقبل أدوات القتل بتبسم وفرح يفوق فرح القادة الفاتحين يوم غلبتهم. وحين قُطعت أطرافه، خَضَب وجهه بدمه، فقيل له: لم فعلت ذلك؟ فقال كلمته الخالدة التي تُمثل قمة الفناء والانتصار على الألم المادي: "ركعتان في العشق لا يصح وضوءهما إلا بالدم"<sup>(٢٦)</sup>.

كما أنشد أبياته الشهيرة التي تختزل فلسفة النصر عبر الشهادة والموت الإرادي:

اقتلوني يا بَقَائِي ... إِنَّ فِي قَتْلِي حَيَاتِي

ومماتي في بَقَائِي ... وَحَيَاتِي فِي مَمَاتِي<sup>(٢٧)</sup>.

لقد أثبتت هذه التجربة الفريدة أن النصر عند سادة العرفان ليس حكراً على رفع الرايات المادية، بل يتجلى النصر الميتافيزيقي<sup>(٢٨)</sup> الأعظم في قطرات الدم التي تُراق في سبيل الحق، مع كمال الرضا والشهود المسبق لمقاعد الصدق في الحضرة الإلهية. فالمجاهد الذي تفيض روحه

(٢٥) محمد بن الحسين أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريفة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٩٧م)، ص ٣٠٨.

(٢٦) ابن باكويه الشيرازي (وصاحب أخبار الحلاج). أخبار الحلاج، نشرة لويس ماسينيون وبول كراوس، (باريس: مطبعة القلم، ١٩٣٦م / وأعدت طبعه: منشورات الجمل، ٢٠٠٥م)، ص ٤٥.

(٢٧) المرجع السابق نفسه، أخبار الحلاج، ص ٤٢.

(٢٨) علم ما وراء الطبيعة (الغيب). ويفصد بـ "ميتافيزيقيا النصر" في البحث: القوانين والسنن الباطنية غير المرئية التي تحكم مسارات المعارك، كتدخل الملائكة، وتأثير همم الأولياء، وإلقاء السكينة والرعب.

(وهو من كبار مؤرخي سادة التصوف) حال السلطان واعتماده الكلي على أهل الحضرة قائلاً: "وكان رحمه الله تعالى، إذا دهمت الخطوب، وحزبته الأمور، يفرغ إلى الله تعالى، ويستغيث به، ويطلب الدعاء من الصالحين والفقراء (أي الصوفية)، ويقول: إنما أنصر بدعائهم، لا بكثرة الجند"<sup>(٣١)</sup>.

هذا التكوين العرفاني للجيش وقيادته جعله "مَجَلِيَّ" مستعداً لتلقي الإمدادات الغيبية، وتطبيقاً عملياً لقاعدة (طريقي ذلٌّ وانكسار) التي أسسها في المبحث الأول.

### ٣. سلاح الأسرار" وأنظار الأقطاب يوم حطين:

تتجلى ذروة المدد الغيبي في مشهد صلاح الدين ليلة المعركة الحاسمة. لقد أدرك السلطان، بفضل تربية العارفين، أن السيوف وحدها لا تحسم الأمر إذا حُجبت أنظار السماء. فانزوى في خيمته، متجرداً من حوله وقوته، منخرطاً في الجندية الروحية بالبكاء والافتقار التام لله تعالى.

ينقل القاضي ابن شداد (المرافق الملازم لصلاح الدين) هذه الحالة التي نُجسد تماماً ماهية "النصر الباطن" وسقوط دعوى القوة: "كان رحمه الله دائم التهجّد، كثير الدمعة... ولقد رأيته يوم الجمعة، وقد دخل وقت الصلاة، وهو في الخيمة وحده، وقد سجد على الأرض وهو يبكي ودموعه تتقاطر على لحيته حتى بلت موضع سجوده... فنظر الله إلى افتقاره وصدقه، فأنزل عليه النصر"<sup>(٣٢)</sup>.

هذا الافتقار الظاهر كان متصلاً في الباطن بهمَم ديوان الأولياء؛ فالتواتر العرفاني يؤكد أن أنفاس سيدي عبد القادر الجيلاني التي أودعها في تلامذته (كالقاضي الفاضل والأمير عيسى الهكاري الذي كان يلبس درع الحرب فوق خرقة التصوف)، وهم أهل الخلوات الذين حشدتهم صلاح الدين في معسكراته، كانت هي "اليد الغيبية" التي أُلقت الرعب في قلوب الأعداء قبل أن تضربهم السيوف. فكان

(الأشهب)، وأنه تحقق ببركة أنظار ديوان الأولياء التي حفت بجيش التحرير.

### ١. هندسة "القوابل"<sup>(٣٩)</sup>: من هزيمة الظاهر إلى إصلاح الباطن (المشروع القادري):

أدرك سيدي عبد القادر الجيلاني بنور بصيرته وكشفه أن الهزائم المتلاحقة للأمة وسقوط القدس في يد الصليبيين لم يكن لخلل عسكري فحسب، بل لـ "خراب القلوب" والركون للعالم، وانقطاع السند الروحي. فأسس مدرسته وزاويته في بغداد لتكون مصنعاً لـ "إعادة تشكيل القابليات" (أي القلوب المؤهلة لاستقبال المدد)، وتخريج جيل متحرر من رق النفس الأمارة.

لقد شخّص الباز الأشهب داء الأمة المانع للنصر، وبدأ بضخ دماء التجريد والتوكل في شرايينها، فكان يصدح في مجالسه قائلاً: "يا غلام، لا تُشرك بالله شيئاً... لا تعتمد على الخلق ولا على الأسباب... فإذا صحَّ لك هذا، صيرت فرداً في الكون، يُعطيك الله قوة لا تُغلب"<sup>(٣٠)</sup>.

لقد تحولت مجالس التزكية هذه إلى "غرفة عمليات باطنية" خرّجت قادة وفقهاء حملوا سر "الافتقار"، وتوزعوا في الأقطار ليؤسسوا الكتلة الصلبة والعصب الروحي لجيش نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين.

### ٢. التحام الولاية بالقيادة: الصبغة الصوفية لجيش التحرير:

إن النصر الأيوبي لم يكن لينعقد لولا أن قادة ذلك الجيش استمدوا أنوارهم من مشكاة المدرسة القادرية والغزالية. فالقراءة الفاحصة لبنية القيادة الأيوبية تكشف عن حضور مكثف لأهل العرفان في أروقة صناعة القرار وفي قلب المعارك.

فقد كان السلطان صلاح الدين نفسه محباً مُجلاً لأهل الله، حريصاً على استقطاب أنظارهم. يصف الإمام الياضي

(٢٩) جمع قابلة، ويقصد بها عند أهل العرفان: القلوب والأرواح ومدى استعدادها وتهيئتها لاستقبال الأنوار والإمداد الغيبية. فالنصر(٣١) عبد الله بن أسعد الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في مدد لا يتنزل إلا على "قابل" طاهر تمت تزكيته وتفريغته من العجب معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، وحظوظ النفس.

(٣٠) عبد القادر بن موسى الجيلاني، الفتح الرباني والفيض(٣٢) بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد، النوار السلطانية والمحاسن الرحمانية، مجلس رقم (٣٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيبان، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ص ١٣٤.

(١٩٩٤م)، ص ٤٥ و ٦٧.

السلطان عثمان يجلس الشيخ ويعظمه، ويقف بين يديه موقف المريد الصادق... فكانت دعوات الشيخ وتوجهاته هي الأساس المتين الذي قامت عليه أركان الدولة، وسرت بركتها في ذريته<sup>(٣٥)</sup>. فهذا "الانكسار" العثماني الأول على عتبة أهل الحضرة، كان هو القابلية التي استقطبت أنظار السماء وأورثتهم التمكين.

٢. فتح القسطنطينية وميكانيزمات التدخل الغيبي (الشيخ آق شمس الدين):

تُمثل ملحمة فتح القسطنطينية الذروة التطبيقية لـ "فقه النصر الباطن". لقد استعصت أسوار المدينة على المدافع والمجانيق، وكاد اليأس يتسلل إلى صفوف الجيش السلطاني، وهنا تجلت "الوظيفة الغوثية" لأهل الحضرة المتمثلة في المربي والقطب العارف سيدي "آق شمس الدين".

لقد أدرك السلطان محمد الفاتح -بحكم تربيته الصوفية- أن النصر قد حُجِبَ لخللٍ في "القوالب" واغترارٍ بالكثرة، فلجأ إلى خيمة شيخه مستغيثاً بمدده الباطني. تذكر المدونات التاريخية ذات الطابع العرفاني أن الشيخ آق شمس الدين أمر بمنع الدخول عليه، ودخل في "خلوة قتالية" باطنية، متجرداً لله، ومنطحراً على بساط الافتقار لاستنزال ملائكة النصر وتوجيه همم الأولياء للمعركة.

يصف طاشكبري زاده مشهد هذا التدخل الباطني قائلاً: "فقصد السلطان خيمة الشيخ... فإذا هو ساجد على الأرض، متضرع إلى الله تعالى، وقد سقطت عمامته من رأسه، واشتعل شبيهه بالتراب، وهو يبكي ويدعو... فما رفع الشيخ رأسه حتى فتح الله على المسلمين"<sup>(٣٦)</sup>.

إن هذا المشهد يطابق تماماً قاعدة (الفناء في توحيد الأفعال) التي أسسها سلفاً؛ فالشيخ في خيمته لم يكن يقاتل بسيف مادي، بل كان يقاتل بـ "سلاح الهمة والافتقار" الذي يفتح أبواب السماء، فكان هذا الانكسار في الخلوة هو السبب الميتافيزيقي المباشر لسقوط الأسوار في الجلوة.

صلاح الدين هو "السيف في عالم الشهادة"، وكانت أنظار الأقطاب هي "الساعد الروحي الممتد من عالم الغيب" الذي مكن هذا السيف من حسم المعركة<sup>(٣٣)</sup>.

المَطْلَبُ الثَّانِي: الفُتُوحَاتُ العُثْمَانِيَّةُ وَعَقِيدَةُ "السَّيْفِ وَالْمَسْبُحَةِ".. التَّأْسِيسُ الكَشْفِيُّ وَمَدَدُ القُطْبِ (آق شَمْسِ الدِّينِ) فِي فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ

إذا كان التاريخ الظاهري يقرأ قيام الدولة العثمانية ٢. وتمدها كحركة سياسية وعسكرية، فإن "التاريخ العرفاني" يقرأها بوصفها "تجلياً لولاية باطنة" أذنت بظهور "قيادة ظاهرة". لقد تأسست العقيدة القتالية العثمانية على قاعدة صوفية راسخة مفادها: (لا يتحرك السيف في ميدان الشهادة، إلا إذا تحركت المسبحة في محراب الغيب). وقد تجسدت ميكانيزمات هذا التدخل الغيبي واستجلاب المدد في محطتين مفصليتين: التأسيس، والفتح الأعظم.

١. البذرة الروحية والتأسيس الباطني (نظرة الشيخ إده بالي):

لم تنطلق شرارة الإمبراطورية العثمانية من قصر حُكْم، بل انبثقت من "زاوية صوفية" ومقامٍ للذكر. لقد ارتبط الغازي "عثمان الأول" ارتباطاً روحياً وثيقاً بقطب زمانه العارف بالله الشيخ "إده بالي"، وكان دائم التردد على خلوته طلباً للمدد ولحظات الافتقار.

ويحفظ التراث العرفاني "الرؤيا الكشفية" الشهيرة التي أسست لشرعية الدولة؛ حيث رأى عثمان في منامه نوراً (أو قمراً) يخرج من صدر الشيخ "إده بالي" ليدخل في صدره، ثم تنبت من ذلك النور شجرة عظيمة تظلل الكون. لقد فسر سادة العرفان هذا النور بأنه "الإذن الغيبي" والتصريف الباطني<sup>(٣٤)</sup> الذي انتقل من ديوان الأولياء إلى يد الحاكم الظاهر.

يُعلق الإمام طاشكبري زاده (من كبار مؤرخي سادة العرفان) على هذه الحادثة المبكرة مبيناً سر التمكين: "وكان

(٣٣) يُنظر في تفصيل دور عيسى الهكاري والقاضي الفاضل والمدرسة القادرية في إعداد جيش صلاح الدين، كأثر روحي تطبيقي: الكيلاني، ماجد عرسان. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، (دبي: دار القلم، ط٣، ٢٠٠٢م)، ص ٢١٥-٢٢٠.

(٣٤) قدرة يهبها الله للولي المتمكن، يتصرف بها في الأكوام<sup>(٣٥)</sup> عصام الدين أحمد بن مصطفى طاشكبري زاده، الشقائق والأسباب بالدعاء أو الهمة. وهو ليس استقلالاً بالفعل من العبد، بل النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق: أحمد صبحي الفرات، لأن الولي لصدق افتقاره أصبح ممراً تنفذ من خلاله إرادة الحق تبارك (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٥م)، ص ١٨-٢٠. وتعالى. الهمة

وتوفي السلطان الأيوبي الصالح أيوب تاركاً فراغاً سياسياً وعسكرياً هائلاً، كان العقل المادي يرى الهزيمة حتمية. غير أن القراءة العرفانية تكشف أن "القيادة الروحية" المتمثلة في ديوان الأولياء قد استلمت زمام المبادرة الباطنية؛ فتحوّلت خيام العارفين على ثغور المنصورة وفي زوايا مصر إلى "عُرف عمليات غيبية" تولت هندسة النصر واستنزال المدد، وتجلت فيها الكيفيات الفاعلة لأقطاب الولاية: سيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي.

### ١. الإمام الشاذلي وسلاح "الأحزاب".. التصريف الباطني من قلب الميدان:

لم يكتفِ الإمام القطب أبو الحسن الشاذلي بالمدد عن بُعد، بل نفذ "استنفاراً روحياً" ونزل بنفسه إلى ميدان المعركة رغم كِبَر سنه وفقدان بصره الظاهر، ليثبت أن البصيرة الباطنة هي التي تدير رَحَى الحرب. لقد رابط الشاذلي مع كبار العارفين (كمحيي الدين بن سراقه، والعز بن عبد السلام) في ثغور المنصورة، جاعلين من الافتقار والانكسار درعاً للأمة.

ولم يكن سلاح الشاذلي سيفاً من حديد، بل كان "سيفاً من حروف وأنوار" تمثل في أوراده وأحزابه التي أُلقيت في روعه إلهاماً. يوثق الإمام ابن الصباغ هذا التدخل الميتافيزيقي مبيناً كيف كان الشاذلي يقرأ "حزب النصر" في خيمته، فكانت كلماته بمثابة "سهام باطنية" تخرق حُجب الغيب لتصيب قلوب الأعداء بالرعب. يقول الشاذلي واصفاً ماهية هذا السلاح: "إن سيوفنا لتسبق سيوفكم، وإننا لنرميهم بسهام الليل التي لا تخطئ". لقد كانت تلاوة الحزب في خيمة القطب بمثابة استدعاء مكثف لملائكة العذاب لضرب العدو، فكانت الهزيمة النفسية في معسكر الفرنجة سابقةً لهزيمتهم العسكرية.

الفوثية الممتدة لـ "شيخ العرب".. سيدي أحمد البدوي وفك الأسرى:

في الوقت الذي كان فيه الشاذلي مرابطاً في الميدان، كان القطب سيدي أحمد البدوي (شيخ العرب) يُدير دفعة المعركة من خلوته العميقة في "طننتا" (طنطا). لقد جسّد

### ٣. الكشف الباطني" كأداة لاستنزال السكينة (اكتشاف قبر أبي أيوب الأنصاري):

لم يقتصر تدخل أهل الحضرة على الدعاء، بل تعداه إلى ممارسة "الكشف العرفاني" بوصفه أداة لتثبيت القلوب وضخ "السكينة" في صفوف الجند. ففي أحلك أوقات الحصار، ولإعادة ربط جيش الفاتح بالسند المحمدي الأول، توجه الشيخ آق شمس الدين بهمته وكشف بنور بصيرته عن الموضع المخفي لقبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه<sup>(٣٧)</sup>.

إن هذا الفعل العرفاني لم يكن مجرد كشفٍ أثري، بل كان عملية "استمداد روحي" واستدعاءً للمدد النبوي الأول (جيش الصحابة) ليلتحم مع جيش الفتح. وقد أحدث هذا الكشف زلزالاً روحياً في صفوف الانكشارية والجنود، فتبدلت قلوبهم من وحشة الحصار إلى أنس السكينة، وأيقنوا أن أنظار ديوان الأولياء وأرواح الصحابة تحف بهم، فتحقق النصر الظاهر الموعود.

ولما تم الفتح، تجلّى أدب القيادة الظاهرة مع الولاية الباطنة في مقولة السلطان الفاتح الخالدة: "إنكم ترونني فرحاً، وما فرحي لفتح هذا الحصن فحسب، بل فرحي بوجود هذا الشيخ الجليل في زماني".

لقد أثبتت هذه الوقائع أن "الجنديّة الروحية" المتمثلة في أنظار وتصريفات الشيوخ العارفين كانت هي العصب المحرك للجيش، وأن السيف العثماني لم يقطع أعداءه إلا لأنه كان موصولاً بـ "يد العناية" التي استجلبها أهل الخلوات بالانكسار والافتقار.

المطلب الثالث: خِيَامُ الْعَارِفِينَ وَتَجَلِّيَاتُ دِيْوَانِ الْأَوْلِيَاءِ.. مدد الشاذلي والبدوي والدسوقي في حَسْمِ مَعْرَكَةِ "المنصورة" تُمثل الحملة الصليبية السابعة على مصر (سنة ١٢٥٠م/ ٦٤٧هـ) بقيادة ملك فرنسا "لويس التاسع"، منعطفاً مصيرياً في تاريخ الأمة الإسلامية. ففي تلك اللحظة الحرجة التي حوصرت فيها جيوش المسلمين في مدينة "المنصورة"،

(٣٧) يوسف بن إسماعيل النهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٢م)، ج ١، ص ٤١٢.

تتضح الصورة الجلية لـ "فيزياء النصر العرفاني"؛ حيث تندمج حركة السيوف في عالم الشهادة مع تصريفات الأقطاب في عالم الغيب، ليتحقق النصر المبين.

وفي رأينا المتواضع نرى أن الانتصارات الفاصلة للأمة (من حطين، إلى القسطنطينية، وصولاً إلى المنصورة) لم تكن يوماً مجرد تقاطع لأسباب مادية، بل كانت تجليات لـ "إرادة غيبية" صرّفها الله عبر قنواته من ديوان الأولياء وأهل الحضرة. لقد تبين لنا أن دموع الافتقار، وخلوات العارفين، وأحزاب الأقطاب، وأنظارهم وتوجهاتهم، كانت هي "المحرك الميتافيزيقي الأول" الذي صاغ القلوب، وألقى الرعب، وأنزل السكينة، قبل أن تُحسم المعارك بالسيوف.

### المَبْحَثُ الثَّالِثُ

مَعَارِجُ الاستِحْقَاقِ .. سُئِلَ اسْتِجْلَابِ المَدَدِ وَالتَّيْلِ بِرِضَا

أَهْلِ الحَضْرَةِ فِي رَمَانِنَا الحَاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِي

إن السنن الإلهية الحاكمة لتتنزل النصر والمدد هي سننٌ ثابتةٌ لا تتبدل بمرور الزمان، و"ديوان الأولياء" لا يزال يمارس وظيفته الغوثية في الأكوان بإذن المُصَرِّفِ الأكبر جل جلاله. بيد أن الإشكالية المعاصرة لا تكمن في "انقطاع المُرْسِلِ" (المدد)، بل تكمن في "عطب المستقبل" (القلوب والأرواح). ومن هنا، يتوجب علينا في هذا المبحث الانتقال من التنظير التاريخي إلى التنزيل الواقعي؛ لنشخص بدقة عرفانية "حُجُب العصر" التي منعت تدفق العناية الربانية، ثم نضع "خارطة طريق سلوكية" تُعيد هندسة الفرد والمجتمع ليكونوا "محالاً قابلةً" لاستقطاب أنظار ديوان الأولياء، واستجلاب النصر في حاضر الأمة ومستقبلها.

المَطْلَبُ الأوَّل: تَشْخِصُ الهَزِيمَةِ العُرْفَانِيَّةِ المُعَاصِرَةِ..

حِجَابُ "الأسباب" وَقَطِيعَةُ "السندِ الرُّوجِي"

إن المتأمل في واقع الأمة المعاصر، المليء بالانكسارات العسكرية والسياسية رغم توفر الكثرة العددية والمادية في كثير من الأحيان، يُدرك يقيناً صدق التشخيص الصوفي. فالهزيمة في ميزان أهل الله ليست مجرد نقصٍ في السلاح، بل هي "عقوبة باطنية" نتجت عن

البدوي أعلى مقامات "التصريف عن بُعد"؛ فبينما كان جسده مستغرقاً في الخلوة، كانت روحه وهمته تفتك بجيوش الفرنجة، وتمد جيش المسلمين بالسكينة والثبات.

لقد عُرف البدوي في الموروث العرفاني بلقب "جِيَّاب الأسير"؛ لتواتر كراماته في إمداد جيوش المسلمين وتخليص أسراهم من سجون الأعداء بقوة "الهمة الغوثية". يُعلل الإمام عبد الوهاب الشعراني هذا التدخل الفوري للبدوي بأنه ثمرة "التجرد التام"؛ إذ يقول: "وما ذاك إلا لصدق افتقاره وسقوط حظوظه، فمكّنه الله من التصرف في الأكوان بإذنه، فكان يمد الغزاة، ويأتي بالأسرى مقيداً بالسلاسل من بلاد الفرنجة ببركة توجهه لله". إن أسر ملك فرنسا (لويس التاسع) ووضعه مكبلاً في دار ابن لقمان، لم يكن في ميزان أهل الله إلا تجلياً ظاهرياً لتقيد باطني ضربه ديوان الأولياء على رقبته قبل أن تصل إليه أيدي الجند.

الحراسة الباطنية والرعب الميتافيزيقي.. كشوفات سيدي إبراهيم الدسوقي:

تتكمّل أضلاع هذا المثلث العرفاني بحضور المدد الغيبي للقطب سيدي إبراهيم الدسوقي (أبو العينين). لقد قرر الدسوقي في فتوحاته أن لأهل الحضرة وظيفة "الحراسة الباطنية" لتغور الإسلام، وأنهم يملكون بإذن الله مفاتيح "الرعب" يقذفونها في قلوب المعتدين.

ورغم أن الدسوقي كان في بواكير ظهوره الروحي إبان تلك الحملة، إلا أن مدده المتصل بالديوان كان فاعلاً في تثبيت المؤمنين وممتداً لما بعدها من معارك. يكشف الدسوقي عن هذه الماهية الميتافيزيقية لتدخل الأولياء في المعارك قائلاً: "أنا سيف الله القاطع... نحن حُجَاب الله على ثغور المسلمين، ببركتنا يُدفع البلاء، وبهمتنا يُهزم الأعداء، فمن التجأ إلينا بصدقٍ كنّا له حصناً منيعاً بفضل الله". وهذا يؤكد القاعدة العرفانية بأن جيش الظاهر لا يمكن أن يثبت أمام قوة طاغية (كالحملة الصليبية) لولا وجود "أوتاد" من أهل الحضرة يثبتون الأرض من تحت أقدامهم، ويسقطون الكثافة المادية للعدو باللطافة الروحية.

بهذا التكامل المذهل بين (أحزاب الشاذلي) في خيمته، و(همة البدوي) من خلوته، و(حراسة الدسوقي) الباطنية،

يُشَخَّصُ العارف بالله سيدي عبد القادر الجيلاني (الباز الأشهب) هذا المرض الغضال الذي يصيب الأمم حين تُتكرر فضل أهل الحضرة وتستغني بعقولها القاصرة، محذراً من عقوبة هذا الحجاب: "يا بُني، لا تكن محجوباً بالخلق عن الخالق... ولا تتكر على أولياء الله تعالى، فمن أنكر عليهم سقط من عين الله، وحُرم بركتهم، وسلط عليه الخذلان"<sup>(٣٩)</sup>.

إن هذا الإنكار المعاصر لوظيفة الأقطاب الغوثية قد أغلق منافذ الإمداد؛ فالمدد العلوي يحتاج إلى "قلوب معتقدة" و"أرواح مُسَلِّمة" لكي يفيض عليها. وحين استبدلت الأمة مشايخ التزكية بخبراء المادة حصراً، فقَدَّت بوصلة السماء.

٣. **خلو الساحة من "القوابل" (غياب الجنديّة الروحية):**

إلى جانب العُجب والإنكار، يقف "فساد الباطن" كحائلٍ صلب أمام النصر. فأنظار ديوان الأولياء هي "أنوار" لا تنتزل على "قوابل" (قلوب) مدنسة بحب الدنيا، ومحجوبة برعونات النفس.

لقد حذّر حجة الإسلام الإمام الغزالي من هذا الخراب الباطني الذي يجعل الحيوش عرضةً للاختراق الشيطاني قبل الاختراق العسكري، موضحاً أن فساد الباطن يُسقط التأييد، فيقول: "وكيف تُشرق أنوار اليقين والتأييد في قلبٍ امتلأ بدخان الشهوات، وتراكت فيه ظلمات المعاصي؟ إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة، فكيف تدخل قلباً مشحوناً بكلاب الغضب والشهوة؟"<sup>(٤٠)</sup>.

إن غياب برامج التزكية الصوفية في التنشئة المعاصرة، أنتج "مقاتلاً مادياً" يفتقر إلى السكينة، وسريع الانكسار عند أول صدمة؛ لأنه يخوض المعركة بجوارحه الظاهرة فقط، بينما روحه محجوبة عن مدد الحضرة المحمدية وأنظار أقطابها.

وبناءً على هذا التشخيص الميتافيزيقي، يتضح جلياً أن هزائم الحاضر ليست ناتجة عن حتمية الضعف العسكري، بل هي نتيجة طبيعية لـ (تضخم الأنا، وإنكار الولاية المُمدَّة،

السقوط في مستنقع "الشرك الخفي" (الاعتماد على الأسباب)، والانتقطاع عن "مُسَبِّب الأسباب" وعن وراثته من أهل العرفان الذين جُعلوا أبواباً وقنواتٍ للمدد.

## ١. الركون إلى عالم الأسباب (إعادة إنتاج متلازمة حنين):

تتفق كلمة سادة العرفان على أن أغلظ الخُجُب المانعة لتتنزل النصر هو "الالتفات إلى الكثرة والمادة". لقد تكررت في العصر الحديث سيكولوجية جيش المسلمين يوم حنين (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) [سورة التوبة: الآية ٢٥]، حين قالوا: (لن نُغلب اليوم من قلة)؛ فكانت النتيجة حجب التأييد الإلهي لتربية النفوس وإسقاط دعوى القوة.

يُقرر الإمام تاج الدين بن عطاء الله السكندري في جُكَمِهِ أن الركون للأسباب الظاهرة والتدبير المادي المحض هو إهانةٌ لليقين، وسببٌ موجبٌ للخذلان الباطني، فيقول: "سوابقُ الهَمِّ لا تحرقُ أسوارَ الأقدار... أرخِ نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تُعْم به لِنَفْسِكَ"<sup>(٣٨)</sup>.

إن العقل الاستراتيجي المعاصر قد غرق في "التدبير المادي"، واغتر بالتقنية والتخطيط البشري متوهماً أنها الفاعلة استقلالاً. وهذا الغرور (العُجب) هو عين الشرك الخفي الذي يمحو مقام "الافتقار" (الذي قررنا في المبحث الأول أنه الماهية الباطنة للنصر). فكيف تنتزل أنظار القطب الجيلاني أو البدوي أو الشاذلي على جيشٍ يرى لنفسه حولاً وقوةً وينازع الله في رداء الكبرياء؟

## ٢. إنكار "الولاية الباطنة" والقطيعة الإبستمولوجية مع ديوان الأولياء:

تكنم الطامة الكبرى في العصر الحديث في تفشي الفكر المادي والمدارس الظاهرية التي لم تكتفِ بإهمال علم التزكية، بل تجرأت على إنكار "الفاعلية الغيبية" لأهل الله، وسقّمت عقيدة "المدد والتصريف الباطني". إن هذه القطيعة المعرفية والروحية مع "ديوان الأولياء" أدت إلى خروج الأمة إلى ميادين القتال بلا "غطاء روعي" وبلا "سند باطني".

(٣٩) عبد القادر بن موسى الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، مجلس رقم (١٢)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١،

(٣٨) تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري، الحكم ١٩٩٩م، ص ٦٨. العطاءية (متن الحكم)، بشرح: ابن عباد الرندي، (بيروت: دار الكتب (٤٠) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب العلمية، ١٩٩٠م)، الحكمة الأولى والثانية، ص ١٢-١٥ عجائب القلب، (بيروت: دار المعرفة، د.ب)، ج ٣، ص ١٢.

قد يتوهم البعض أن الاعتماد على المدد الغيبي يُعفي من الالتزام بالأحكام الظاهرة، وهو وهمٌ قاطعٌ لخطوط الإمداد. لقد أجمع أهل الحضرة على أن "الاستقامة هي عين الكرامة"، وأن المدد الباطني لا يتدفق إلا في قنوات الشريعة المطهرة. فالملائكة وديوان الأولياء لا يمدون من يبارز الله بالمخالفات. يضع سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيد البغدادي هذا الشرط الحاكم، مانعاً أي انحراف عن الجادة السلوكية، فيقول بعبارة الخالدة: "طريقنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في طريقنا"<sup>(٤٢)</sup>.

إن رضا ديوان الأولياء ونظرهم لا يقع على من يتجاوز حدود الله. فالمجاهد المعاصر الذي يروم نصر السماء، يجب أن يكون ظاهره منضبطاً بميزان الفقه، وباطنه متصللاً بأنوار العرفان. فالشريعة هي (السفينة)، والمدد هو (البحر)، ولا نجاة لمن خرق سفينته بالمعاصي وتوهم النجاة في بحار الأنوار.

٣. الباب الأعظم" ومولد الطاقة الروحية (كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لمن فقد المربي):

تبرز هنا إشكالية كبرى في زماننا الحاضر المليء بالفتن: (ماذا يفعل من صدّق طلبه للنصر والمدد، ولكنه فقد "الشيخ المربي" المؤهل، أو حالت بينه وبين أهل الله الحواجز والمسافات؟)

هنا، يُقدم النسق العرفاني "الترياق الأعظم" و"الباب المفتوح" الذي لا يُغلق أبداً؛ وهو (الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم). لقد أجمع كبار الأقطاب على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تقوم مقام الشيخ المربي، وهي البوابة المباشرة للدخول في (الحضرة المحمدية) التي هي المنبع الأصيل الذي يستمد منه الأقطاب أنوارهم ومددهم.

يقرر العارف بالله سيدي أحمد زروق الفاسي (مُحتسب الصوفية) هذه الآلية الإنقاذية لمن فقد المربي الظاهر، مؤكداً أنها البوابة المباشرة للحضرة ولجلب رضا الأقطاب، فيقول: "ومن لم يجد شيخاً مُرشداً، فليكثر من الصلاة والسلام على

وتدنس القوالب). ومفتاح الحل يكمن في عملية "هدم وبناء" باطنية تُعيد ترتيب علاقة المسلم المعاصر بالغيب وأهله.

**المطلب الثاني: معارج الاستحقاق العمليّة.. الفناء، وصون الشريعة، وإحياء "الرّابطة الروحيّة" بأهل الحضرة**

بعد تشخيص "حُجُب العصر" المانعة لتنزل المدد، يتوجب الانتقال إلى الجانب الإجرائي لبناء (إنسان الحضرة)؛ ذلك الفرد الذي تتوافر فيه الشروط الباطنية لاستقطاب أنوار ديوان الأولياء وتأييد السماء. إن طريق النصر في حاضر الأمة ومستقبلها لا يمر عبر تكديس السلاح بمعزل عن الروح، بل يمر عبر إعادة هندسة الباطن وفق منهجية سلوكية صارمة قررها كبار العارفين. وتتخلص هذه المنهجية في ثلاث محطات كبرى:

١. هدم "صنم الأسباب" وتحقيق مقام "الافتقار" المطلق:

إن البوابة الأولى والشرط الأساس لاستئزال المدد الغيبي واستقطاب نظر القطب، هو "الخروج من دعوى الحول والقوة". فالنصر محجوبٌ عن يعتمد على كثرته أو سلاحه أو تخطيطه استقلالاً. لذا، فإن الخطوة العملية الأولى لجيل النصر هي "الانكسار على عتبة العبودية"، والتبرؤ التام من كل سبب مادي مع الأخذ به ظاهراً.

يضع القطب سيدي أحمد الرفاعي (أبو العلمين) هذا المقام ك (مغناطيس أعظم) لجذب المدد، حيث يقول: "يا بُني، الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولم أجد أقرب ولا أوسع ولا أرجى من باب الافتقار والذل والانكسار... فمتى تحقق العبد بهذا المقام، تولاها الحق بعنايته، وألقى محبته في قلوب أوليائه"<sup>(٤١)</sup>.

إن الفرد أو الجيش المعاصر الذي يطمح للنصر، مُطالبٌ ب (صيام الباطن) عن رؤية الأسباب الدنيوية، والإعلان الدائم للعجز الكلي. هذا الانكسار هو "الشفرة الروحية" التي تُحرك همم الأقطاب ليمدوا هذا الجيش ببركاتهم.

٢. الشرط الحمائي: صون الشريعة والالتزام بالحدود (لا ولاية بلا استقامة):

(٤١) أحمد بن علي الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله (البرهان) (٤٢) عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم المؤيد، تحقيق: عبد الغني محمود، (دمشق: دار الطباع، ط٢، ١٩٧٠، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، دبت)، ج١، ص ٧٣.

المدد امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ سورة الأنفال: الآية ١٧.

### ١. فقه الجمع" كعقيدة قتالية (الجوارح للأسباب والقلوب للمُسبب):

يقرر النسق العرفاني أن العارف المُكتمل ليس هو المنعزل عن الأسباب، بل هو الذي يقف في قلب الأسباب دون أن ترتبط همته بها. فالفصل بين امتلاك السلاح (شريعة الظاهر) وانتظار المدد (حقيقة الباطن) يُعدُّ اختلالاً في التوازن الوجودي وتطاولاً على السنن الإلهية.

لقد صاغ حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي هذه المعادلة الدقيقة، مبيناً أن التوكل لا يُنافي الأخذ بالأسباب، بل يُنافي "الاعتماد" عليها، فيقول: "الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نُقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْخ في الشرع... وإنما التوكل أن تأخذ بالسبب ولا تعتمد عليه"<sup>(٤٦)</sup>.

وفي ذات السياق، يضع القطب سيدي أحمد الرفاعي الدستور الخالد لفقه الجمع محذراً من طرفي النقيض، فيقول: "من ترك الأسباب فقد خالف السنة، ومن اعتمد عليها فقد أشرك"<sup>(٤٧)</sup>. إن هذه القاعدة هي "الدستور العسكري" لجيش المستقبل؛ جيشٌ يمتلك أحدث التقنيات وأعد المنظومات، لكن أرواح جنده تخفق بالافتقار المطلق لرب البريات، فلا يحجبهم السلاح عن رؤية مُدّمهم الحقيقي.

### ٢. صياغة "إنسان الحضرة" .. اليد في الآلة والقلب في الملكوت:

إن بناء "القابلية" لاستنزال مدد ديوان الأولياء في معارك المستقبل، يتطلب صياغة نموذج "المقاتل الرباني" الذي تتكامل فيه الجلوة مع الخلوة. هذا الفرد تتغمس يده في أعتى المعارك التكنولوجية، بينما يبقى قلبه ساكناً في محراب المشاهدة، موصولاً بالسند المحمدي.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها تقوم مقام الشيخ، وتُوصل السالك إلى حضرة القدس، وتُمدّه بأنوار العناية"<sup>(٤٣)</sup>.

ويؤكد الإمام ابن عطاء الله السكندري هذا المعنى العظيم كطوق نجاة: "من لم يكن له شيخٌ يُرشده، فليكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها تُرشده، وهي وسيلته إلى ربه، وسببه إلى نيل الفتوح والمواهب"<sup>(٤٤)</sup>.

إن مجالس الذكر، والاستغراق في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (لا سيما في الأسحار وميادين المواجهة)، تُحيل قلب المسلم المعاصر إلى "نقطة ارتكاز نورانية". وهذه النقطة تجذب إليها مباشرة أنظار الأقطاب والغوث (بوصفهم النواب والورثة للسر المحمدي)، فيحيطون هذا القلب بعنايتهم، ويمدونه بالثبات والسكينة، وتُصبح أرواح العارفين ظهيراً له في معاركه الروحية والمادية على حد سواء.

### المطلب الثالث: هُدًى جيل النصر المُستقبلي.. "فقه الجمع"<sup>(٤٥)</sup> بين ذروة الإعداد المادي وكَمال الشهود العرفاني

إن الغاية القصوى من قراءة "ميتافيزيقيا النصر" واستدعاء تجليات أهل الحضرة، ليست دعوةً للعودة عن الأسباب الظاهرة، أو الركون إلى تواكلٍ سلبٍ يُعطل حركة الحياة، بل هي دعوةٌ لتأسيس "جيلٍ رباني" يمتلك مفاتيح عالمي (الشهادة والغيب) معاً. إن التحدي الاستراتيجي المُستقبلي للأمة لا يكمن في الاختيار بين "المادة" أو "الروح"، بل يكمن في إتقان ما يُطلق عليه سادة العرفان "فقه الجمع"؛ وهو المقام الذي يندمج فيه أقصى درجات الإعداد المادي والتكنولوجي امتثالاً للأمر الإلهي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، مع أقصى درجات الفناء والتجريد القلبي لاستنزال

(٤٣) أحمد بن أحمد الفاسي زروق، قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٥م)، ص ٨٥ و١٤٢.

(٤٤) تاج الدين أحمد بن محمد ابن عطاء الله السكندري، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتح، (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦١م)، ص ٦٨.

(٤٥) ذروة الكمال السلوكي، ويقصد به الجمع بين (الشريعة) وهي التوكل، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج٤، ص ٢٤٨

(٤٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب

الأخذ بأقصى درجات الأسباب المادية الظاهرة كإعداد السلاح<sup>(٤٧)</sup> الرفاعي، أحمد بن علي. حالة أهل الحقيقة مع الله (البرهان والتكنولوجيا، وبين (الحقيقة) وهي الاعتماد القلبي المطلق على الله المؤيد)، تحقيق: عبد الغني محمود، (دمشق: دار الطباع، ط٢، والبراءة من تلك الأسباب باطنا (سقوط رؤية الفاعلية). الناسوت ٢٠٠٥م)، ص ١١٢

"عقيدة قتالية" لا تقل أهمية عن خطط المعارك. حينها فقط، تكتمل القوالب، وتتوجه أنظار الأقطاب، وتنزل ملائكة النصر.

### المَبْحَثُ الرَّابِعُ

نَمَرَاتُ التَّفْسِيرِ الْإِشَارِيِّ.. مِنْ "خَلَوَاتِ التَّرَكِيَّةِ" إِلَى "جَلَوَاتِ التَّمَكِينِ" (تَارِيحًا وَمُسْتَقْبَلًا)

إن الفقه العرفاني للنصر لا يقف عند حدود التحام الجيوش أو استنزال المدد، بل يمتد ليؤسس "أدب ما بعد الفتح". ففي ميزان أهل الحضرة، يُعد التمكين الظاهر لحظة اختبار باطني قاسية؛ إذ لطالما كان النصر منزلقاً خطيراً نحو "العُجب" ورؤية النفس. ومن هنا، يبرز التفسير الإشاري كبوصلة حاكمة تضبط إيقاع القلب الفاتح، لتعيده قسراً من نشوة (جلوة التمكين) إلى انكسار (خلوة التزكية). في هذا المبحث الختامي، نتناول الغاية العظمى للنصر عند أهل الله، وكيف تُقرأ سور الفتح إشارياً لضمان ديمومة المدد، مع استشراف كيفية تنزيل هذه المعاني على واقع الأمة المعاصر ليكون نصرها نصراً ربانياً خالصاً.

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ: الْفَتْحُ الْمُبِينُ وَأَدَبُ الْعَارِفِينَ بَعْدَ النَّصْرِ (قِرَاءَةٌ إِشَارِيَّةٌ فِي سُورَةِ النَّصْرِ)

تتفق كلمة سادة العرفان على أن أعظم محنة قد تُبتلى بها النفوس هي محنة "التمكين"؛ حيث تميل النفس الأمارة بطبعها إلى ادعاء الفاعلية، وتتخطفها نشوة الغلبة فتغفل عن المُسَبِّبِ جل جلاله. لذلك، جاءت الإشارات القرآنية حاسمةً في وضع الدستور العرفاني لـ "أدب الفاتحين"، والذي يتلخص في: (الرجوع الفوري من شهود الفعل إلى بساط العبودية والاستغفار). ويتجلى هذا الدستور بأبهى صورته في القراءة الإشارية لسورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ \* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْهُ ۗ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ سورة النصر: الآيات ١-٣.

١. التجريد من الحول والقوة وسلب الفاعلية البشرية (إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ):

تبدأ القراءة الإشارية لسورة النصر بالوقوف عند إضافة النصر إلى اسم الذات (الله). يُقرر الإمام سهل بن عبد الله التستري أن هذه الإضافة ليست مجرد إخبار، بل هي "إشارة تجريد" تسلب عن المخلوقين كل قطرة من قطرات الفاعلية.

يُشَخَّصُ سلطان العارفين سيدي عبد القادر الجيلاني ملامح هذا النموذج الفريد، مبيناً أن كمال الولاية والقوة هو في الجمع بين حركة الظاهر وسكون الباطن، فيقول في توجيهاته لتربية الجيل: "كُنْ مع الحقِّ بلا خَلْق، وكُنْ مع الخَلْق بلا نَفْس... لتَكُنْ يَدُكَ في الأشياءِ، وقلْبُكَ في حضرةِ رَبِّ الأشياءِ"<sup>(٤٨)</sup>.

هذا هو (إنسان الحضرة) الذي تنتظره ميادين المستقبل؛ مقاتلٌ يُتَقَنَّ التخطيط الاستراتيجي ويواكب لغة العصر، ولكن بوصلته الداخلية موجّهة نحو استقطاب أنظار الأقطاب، لا يغتر بكثرة، ولا ينهزم أمام قلة، لأن روحه تستمد طاقتها وثباتها من الغيب الصافي الممتد من أنفاس ساداته.

التلاحم العضوي بين القيادة الظاهرة والولاية الباطنة (استدامة المدد):

إن الرؤية المستقبلية لاستعادة مجد الأمة توجب إعادة الاعتبار لـ "الجنديّة الروحية" واعتبارها الشرط المُكْمَل للجنديّة المادية. فكما تُبنى المعسكرات لتدريب الأجساد، يجب إحياء "الزوايا ومجالس الذكر" لتكون "مولدات طاقة" تُغذي خطوط الجبهة، وتصنع درعاً ميثاقياً يحمي الأمة في أوقات المحن.

يؤكد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي هذا التلاحم، مبيناً أن استقرار الملك الظاهر وانتصاره مرهونٌ بصلته بأوتاد الغيب. يقول موضحاً هذه التراتبية الحاكمة: "ولا يزال الملكُ الظاهرُ مُوطَّأً ما دام معتمداً على ولايتهم الباطنة، مُسْتَمِدّاً من أنفاسهم، فإذا استغنى عنهم بسيفه، سُلِطَتْ عليه السيوف"<sup>(٤٩)</sup>.

لذا، فإن استدامة النصر المستقبلي تستوجب ألا يأنف قادة الظاهر من التذلل للولاية الباطنة، وأن يجعلوا من كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والافتقار في الأسفار

(٤٨) عبد القادر بن موسى الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، المجلس الثاني، ص ٢٢.

(٤٩) محيي الدين محمد بن علي ابن عربي، الفتوحات المكية، (بيروت: دار صادر، د.ت)، السفر الثاني، الباب الثالث والسبعون، ج ٢، ص ١٦.

في التفسير الإشاري، التسبيح هنا هو "عملية جراحية باطنية" لتزوية الله سبحانه عن أن يشاركه العبد في نسبة الفتح لنفسه. يُفكك الإمام أبو القاسم القشيري هذا السر العرفاني العميق قائلاً: "التسبيح هنا: تنزيه الحق عن أن يشاركه أحد في إيجاد الفتح، والحمد: شكره على ما أولى من التمكين... فكانه قيل: إذا رأيت آثاراً فُذرتنا في أعدائنا، فنزّهنا عن الحول والقوة منك، وارجع إلى افتقارك"<sup>(٥٢)</sup>.

وبهذا، يتحول ميدان المعركة المنتصرة من ساحة للتفاخر وعرض الغنائم، إلى (حضرة تسبيح) تتقدم فيها (الأنا) وتتجلى فيها كبرياء الربوبية وحدها.

يتطابق هذا المعنى تماماً مع التجربة النبوية يوم فتح مكة؛ حيث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم خافضاً رأسه الشريف حتى كاد يمس رِجْل راحلته، متجرباً من كل مظاهر الفتح المادي، ومنتحلاً بكمال الافتقار والاستغفار. إن هذا "الأدب العرفاني" يضمن عدم تحول النصر إلى حجاب؛ فالجيش الذي يختم انتصاره بالاستغفار والانكسار، هو جيش أثبت استحقاقه للمدد الدائم، وهو المهياً لتنزيل التمكين المادي إلى مستوى الخلافة الربانية في الأرض.

**المطلب الثاني: البرهان التاريخي لإعكاس التفسير الإشاري..**  
**التطبيق العملي لـ "أدب الفتح" في النموذج الأيوبي**

إن القراءة الظاهرية للتاريخ تكفي برصد انتصار الجيوش وانهزام الأعداء، لكن القراءة العرفانية تنتبع "حالة القلب" للقائد المنتصر بعد المعركة؛ لترى هل سقط في فخ العُجب ورؤية الأسباب (وهو ما يُسقط المدد المستقبلي)، أم أنه حقق التفسير الإشاري لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ فرجع فوراً إلى بساط العبودية؟

يُعد نموذج التحرير الأيوبي لبيت المقدس التطبيق الميداني الأكمل لهذا الدستور الإشاري، حيث انعكست تربية المدارس الصوفية (القادرية والغزالية) على سلوك السلطان صلاح الدين وجيشه، محولة نشوة التمكين إلى مقام من الاستغفار وسلب الفاعلية.

يقول التستري في إشارته: "النصرُ نصران: نصرٌ بالظفر على الأعداء، ونصرٌ بعصمة القلب عن رؤية الظفر... فالأول نصرٌ للظاهر، والثاني نصرٌ للباطن وهو الأتم"<sup>(٥٠)</sup>.

هذه الإشارة تؤسس للماهية الأولى لأدب الفتح: "صيام القلب عن رؤية الأسباب" لحظة الغلبة. فالقائد العارف لا يرى سيفه، بل يرى يد الحق التي بطشت، ولا يرى خطته، بل يرى تصريف الغيب الذي نفذ.

٢. فلسفة "الاستغفار" في لحظة التمكين.. الحماية من آفة العُجب (وَأَسْتَغْفِرْهُ):

وهنا يبرز الإشكال الأكبر: الاستغفار عادةً يكون عقب الذنوب والهزائم، فلماذا أمر به الفاتحون وهم في ذروة طاعتهم ونصرهم لدين الله؟

لقد غاص الإمام ابن عجيبة الحسني في بحار هذه الإشارة، مستخرجاً دُرّة عرفانية تفسر هذا الأمر. فالاستغفار هنا ليس من ذنب ظاهر، بل هو استغفارٌ من "الميل الخفي" لرؤية النفس، واستغفارٌ من "ساكنة الفرح بالنصر" بدلاً من الفرح بالناصر.

يقول ابن عجيبة في (البحر المديد): "أمره بالاستغفار عند رؤية النصر والفتح، لِيَمْحُوَ عَنْهُ رُؤْيَا الْعَمَلِ، وَيُشْهِدَهُ مِنَّةَ اللَّهِ وَقُضْلَهُ... فَإِنَّ رُؤْيَا النَّفْسِ فِي الطَّاعَاتِ (وَالجِهَادِ) مِنْ أَعْظَمِ الْجِنَايَاتِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ"<sup>(٥١)</sup>.

إن هذا "الاستغفار الميتافيزيقي" هو الغسل الباطني الذي يظهر المنتصر من الشرك الخفي، ويحمي النصر من الانقلاب إلى قطيعة روحية تسقط الفاتحين من عين العناية.

٣. العودة الفورية إلى بساط العبودية والتنزيه المطلق (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ):

لماذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والجيش الفاتح بـ "التسبيح" فور تحقق النصر؟

(٥٠) سهل بن عبد الله التستري، تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م)، ص ١٨٥.

(٥١) أحمد بن محمد الحسني ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير (٥٢) عبد الكريم بن هوازن القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي، (القاهرة: مطبعة حسن البسيوني، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠٠٠م)، عباس زكي، (١٩٩٩م)، ج٨، ص ٥٤٢.

دموعه لحيته، وكان يستغفر الله كثيراً، ولم يرَ عليه أثرٌ من كبرياء الملوك، بل كان كأفقر الناس<sup>(٥٤)</sup>.

هذا "الاستغفار الميداني" والبكاء الطويل لم يكن بكاء ضعف، بل هو (غسل باطني) نفذه صلاح الدين ليظهر قلبه من أدنى شائبة لـ "العُجب" أو الالتفات إلى الذات، محققاً بذلك الشرط العرفاني لديمومة التمكين.

٣. **خطبة الفتح والرباط الباطني (وثيقة عرفانية في سلب الفاعلية):**

إن أبلغ دليل على تحوّل التفسير الإشاري إلى عقيدة راسخة في جيش التحرير الأيوبي، هو "خطبة الجمعة الأولى" التي أُلقيت في المسجد الأقصى بعد التحرير. لقد اختار صلاح الدين القاضي محيي الدين بن زكي الدين ليلقي الخطبة، فجاءت كلماتها أشبه بـ "تصّ صوفي متكامل" ينطق بالبراءة من الحول والقوة.

وقف الخطيب أمام الجند المنتصرين ليُقرع أسماعهم بضرورة "الاستغفار من رؤية الفعل"، قائلاً: "ولا تظنوا أن سيوفكم الحداد، وخيولكم الجياد، هي التي فتحت هذه البلاد... بل هو النصرُ الذي ليس إلا من عند الله... فاحذروا أن ينزع الشيطانُ منكم ثوبَ هذا الفتحِ بكيرٍ أو عُجبٍ يداخلكم، فتقولوا: بأسيافنا فتحنا"<sup>(٥٥)</sup>.

ولضمان استمرار هذا "الرباط الباطني"، أمر صلاح الدين فور الفتح بتحويل بعض القصور إلى "خوانق" (زوايا صوفية) كـ "الخانقاه الصلاحية"، وجعلها وفقاً على الصوفية القادمين من كل حدب وصوب<sup>(٥٦)</sup>. لقد أدرك -بفضل بصيرته- أن بقاء القدس محصنة يتطلب أسواراً من (أنفاس

١. **هدم "صنم العُجب" يوم الفتح (ثمرّة التربية القادرية):**

لقد كانت اللحظة التي سقطت فيها القدس بيد المسلمين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) لحظةً قابلةً لتعجير أعتى مشاعر الفخر والخيلاء في قلب أي قائد عسكري. فكيف تعامل معها صلاح الدين؟

إن القراءة العرفانية لسلوك السلطان في تلك اللحظة تؤكد أنه كان يستحضر وصايا شيوخه من أهل الخلوات. لقد تربى جيل التحرير على توجيهات الغوث سيدي عبد القادر الجيلاني التي تُحذر من سلب المدد عند ركوب سهوة الغرور، حيث كان يصدح في مجالسه: "يا بني، إذا نصرَكَ الله فلا تنظر إلى سيفك، بل انظر إلى مَنْ سلط سيفك... فوالله إن التفتت إلى قوتك، أو كلك الله إليها فخذلت"<sup>(٥٣)</sup>.

ولقد تجلّى هذا الأدب القادري يوم الفتح؛ فلم يدخل صلاح الدين القدس دخول الفاتحين المتغطرسين، بل دخلها دخول العبيد المفتقرين، مُقرراً بأن الفتح محض فضلٍ وتصريفٍ إلهي، وليس نتاج عبقريته العسكرية. هذا الانكسار هو الترجمة العملية الحرفية لـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ أي تنزيه الله عن أن يشاركه العبد في دعوى الفاعلية.

٢. **خلوة الشكر والاستغفار من رؤية النصر:**

يتجلّى التفسير الإشاري لقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ (أي الاستغفار من مساكنة الفرح بالنصر والغرور به، كما قرره ابن عجيبة) في أبهى صوره يوم دخول صلاح الدين إلى المسجد الأقصى. ففي اللحظة التي كانت الجيوش فيها تضح بالتكبير والتهليل ونشوة الغلبة، كان قلب السلطان مشحوناً بـ "وجل العارفين" خشية أن يُسلب مقام الافتقار.

يروى القاضي بهاء الدين بن شداد (المرافق الملازم للسلطان) هذا المشهد المهيّب الذي يُجسد أدب العارفين بعد النصر، وكيف كان يفر من رؤية عمله، قائلاً: "ولما تكامل النصر، خرّ ساجداً لله طويلاً، وبكى بكاءً شديداً حتى بليت

(٥٤) بهاء الدين أبو المحاسن ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٤م)، ص ٨٢ و ١١٥

(٥٥) عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م)، ج٤، ص ٥٣

(٥٣) عبد القادر بن موسى الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، (٥٦) مجير الدين الحنبلي العلمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، المجلس السادس والخمسون، والخليل، تحقيق: محمود الكعابنة، (عمان: مكتبة ندديس، ١٩٩٩م)، ص ٢١٤ ج٢، ص ٤٢.

الذاكرين ودعوات المفتقرين) لا تقل أهمية عن أسوار الحجارة. هذا التطبيق العملي، أثبت النموذج الأيوبي أن التفسير الإشاري لآيات النصر ليس مجرد ذوقٍ نظري يُقرأ في زوايا التصوف، بل هو "عقيدة قيادية" متكاملة؛ تبدأ بالافتقار في الخلوات، وتتم بالاستمداد في الجلوات، وتُختتم بالاستغفار والانكسار عند التمكين، لضمان بقاء الأمة موصولةً بحبل السماء.

٣. تجريد القتال من حظوظ النفس (نموذج الامير عبد القادر الجزائري):

لضمان بقاء النصر رحمانيا وبعيدا عن الانتقام، يشترط ديوان الاولياء ان يكون القتال خالصا لله، ومجردا من اي انفعال نفساني. فإذا خالطت نية المجاهد شائبة من غضب لنفسه او رغبة في العلو، بطل مقامه وحجب عنه المدد. وقد تجسد هذا الفناء عن حظ النفس في سيرة القادة العارفين كالامير عبد القادر الجزائري، الذي قاد جهادا مريرا ضد الاستعمار، ولكنه عامل اسرى الاعداء بغاية النبل والعفو بمجرد انكسار شوكتهم. لقد كان الامير يقاتل بسيف الشريعة، ولكنه ينظر للمهزومين بـ (عين القدر) بوصفهم مقهورين تحت المشيئة الالهية، مبرهنا ان غاية التدخل الغيبي هي اعلاء كلمة الله ونشر السلام، وليس الانتقام البشري<sup>(٥٧)</sup>.

٤. الفتح الاكبر هو انتقال القلوب من القطيعة الى الوصل:

بالعودة الى القراءة اشارية لخواتيم سورة النصر، نجد ان الآية الكريمة ربطت بين الفتح العسكري (اذا جاء نصر الله والفتح) وبين ثمرته العظمى وغايته الحقيقية (ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا). فالنصر المادي وفتح الحصون عند اهل الله يسمى (الفتح الاصغر)، بينما هداية الناس ودخولهم في دائرة النور المحمدي هو (الفتح الاكبر).

يلق الامام ابن عجيبة على هذه الغاية مبينا ان سرور الفاتحين لم يكن لمجرد الاستيلاء على المدن، بل لنجاة الارواح، فيقول: "الفتح الاكبر ليس فتح الحصون

المطلب الثالث: الفتح الرحماني.. الغاية العظمى للنصر في النسق العرفاني (هداية الخلق لا ابادتهم)

اذا كانت الفلسفات العسكرية المادية تقرأ النصر بوصفه فرصة للتوسع الجغرافي، وفرض الهيمنة، وسحق الخصوم، فان النسق العرفاني ينسف هذه الرؤية الاستعلائية ليؤسس مفهوما اخلاقيا وروحيا يتجاوز منطق (الغلبة) الى منطق (الرحمة). فالنصر في ميزان العارفين ليس غاية انتقامية، بل هو "ضرورة علاجية" تتسق تماما مع المقصد الاسمي للرسالة المحمدية المتمثل في قوله تعالى: (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين). وبذلك تكون الغاية القصوى من التدخل الغيبي واستجلاب المدد هي ازالة الموانع الكثيفة لايصال انوار الهداية الى قلوب الخلق.

١. السيف كمبضع الجراح (النظر الى المخالف بعين الشفقة):

يقرر فقه النصر الباطن ان المجاهد الموصول بالله لا يقاتل اعداءه بدافع الحقد الشخصي او التشفي، بل ينظر اليهم بعين الشفقة باعتبارهم مرضى واسرى لجهلهم وحجبهم. ولذلك، فان استخدام السيف لا يصار اليه الا كآخر دواء، تماما كما يستخدم الطبيب مبضعه لبتير العضو الفاسد انقاذا لبقية الجسد.

يؤصل الشيخ الاكبر محيي الدين ابن عربي لهذا

الادب العالي، مبينا ان الاصل هو الابقاء على البنين<sup>(٥٧)</sup> محيي الدين محمد بن علي بن عربي، الفتوحات المكية. الانساني وان الرحمة هي الحاكمة حتى في ساحات الوغى، (بيروت: دار صادر، د.ت)، السفر الثاني، ص ٢٦١ فيقول: "واعلم ان الابقاء على النشأة الانسانية اولى من (٥٨) الامير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، المواقف في ازلتها... فان الولي العارف يرحم العالم كله، وقتاله قتال التصوف والوعظ والارشاد. تحقيق: عبد المجيد خيالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م)، ج٢، ص ١٨٥

الضروري بعد كل نصر لضمان ديمومته، وهو ما طبقه صلاح الدين الأيوبي واقعاً عملياً بالدموع والسجود يوم فتح القدس.

٤. إن أزمة الأمة المعاصرة وهزائمها هي "عقوبات باطنية" نتجت عن السقوط في (حجاب الأسباب والغرور المادي)، والقطيعة التامة مع (السند الروحي والتربية القلبية).

٥. إن استجلاب المدد المستقبلي واستحقاق نصر ديوان الأولياء يتحقق حصراً عبر تفعيل "فقه الجمع"؛ وهو المزوجة بين ذروة التكنولوجيا المادية الحديثة (وأعدوا)، وكمال الشهود العرفاني (وما رميت)، مع إحياء الصلة بالحضرة المحمدية (عبر كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كمولد للطاقة الروحية لمن فقد المربي).

#### ثانياً: التَّوَصِيَّات:

١. دعوة كليات الشريعة والمؤسسات التربوية والعسكرية، لإعادة إدماج مفاهيم "التركية، والافتقار، والتفسير الإشاري" في مناهج إعداد القادة، لرفض التفسيرات المادية الباردة التي تُقصي دور السماء وتُشكر فاعلية أهل الولاية.

٢. توجيه شباب الأمة ومجاهديها لإحياء "مجالس الذكر والصلوات المحمدية" واعتبارها محطات ارتكاز استراتيجية تبني "القوالب" المستحقة لنظر ورضا أهل الحضرة، لتكون الأرواح ظهيراً للأسلحة في ميادين الدفاع عن الأمة.

#### قائمة المصَادِرِ وَالْمَرَاجِع:

أولاً: المصادر الأصلية (القرآن الكريم والسنة النبوية البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري). الرياض: دار السلام، ط١، ١٩٩٧م).

#### ثانياً: باقي المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.  
٢. ابن الصباغ، محمد بن أبي القاسم الحميري (ت ٧٢٣هـ). درة الأسرار وتحفة الأبرار في مناقب وأقوال أبي الحسن الشاذلي.

والمدائن، بل هو فتح قلوب العباد بأنوار الهداية. فإذا جاء نصر الله لك على اعداء الظاهر، فتح الله لك قلوبهم في الباطن، فتقلب عدوتهم محبة، وشركهم توحيداً... وتلك هي الغاية التي من أجلها جردت السيوف<sup>(٥٩)</sup>.

وبهذا يكتمل البناء المعرفي لـ "ميتافيزيقيا النصر"، ليثبت البحث ان التصوف الاسلامي قدم للعالم انبل عقيدة قتالية؛ عقيدة تبدأ بالانكسار والافتقار في الخلوات، وتمر باستجلاب المدد الغيبي في الجلوات، وتختتم بالرحمة والعمو وهداية الخلق عند التمكين، محولة ميادين الدم الى ساحات للرحمة الربانية.

#### خَاتِمَةُ الْبَحْثِ وَالنَّتَائِجِ وَالتَّوَصِيَّات:

الحمد لله الفتح العليم، الذي بنعمته تتم الصالحات. بعد هذه الرحلة الأكاديمية الاستكشافية العميقة في فضاءات "التفسير الإشاري"، وأروقة "ديوان الأولياء"، ومصنفات سادة العرفان، نخلص في هذه الدراسة إلى إرساء قواعد "فقه النصر الباطن" وفق النتائج والتوصيات الآتية:

#### أولاً: النَّتَائِجُ الْعِلْمِيَّة:

١. إن "النصر" في حقيقته الميتافيزيقية والتفسير الإشاري ليس مجرد تفوق مادي وعسكري، بل هو "مددٌ غيبي" وتجلٍ إلهي لا يتنزل إلا على القلوب التي حققت شروط (الافتقار، الفناء عن رؤية الحول والقوة، والانتصار المسبق في معركة الجهاد الأكبر وتركية النفس).

٢. أثبتت كشوفات سادة العرفان والتفاسير الإشارية (كالقشيري، والتستري، وابن عجيبة) وجود "فاعلية ميتافيزيقية" قاطعة لـ "ديوان الأولياء" في توجيه المعارك، حيث يمثلون قنوات لتصريف المدد بسلاح "الهمة"، وأن أعلى مراتب النصر الروحي قد تتحقق بالشهادة والفناء الجسدي كما في فلسفة الجنيد وتجربة الحلاج.

٣. برهنت القراءة الإشارية لآيات الفتح (كسورة النصر) أن العارفين يخشون نشوة التمكين لاحتمالية السقوط في العُجب؛ ولذا كان "الاستغفار والانكسار" هو الغسل الباطني

(٥٩) احمد بن محمد الحسني ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. (القاهرة: مطبعة حسن عباس زكي، ١٩٩٩م)، ج٨، ص ٥٤١

- تحقيق: أحمد فريد المزدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
١٣. الرفاعي، القطب أحمد بن علي (ت ٥٧٨هـ). حالة أهل الحقيقة مع الله (البرهان المؤيد). تحقيق: عبد الغني محمود. دمشق: دار الطباع، ط٢، ٢٠٠٥م.
١٤. زروق، أحمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٩٩هـ). قواعد التصوف. تحقيق: عبد المجيد خيالي. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٥م.
١٥. السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين (ت ٤١٢هـ). طبقات الصوفية. تحقيق: نور الدين شريبة. القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٩٧م.
١٦. السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر (ت ٦٣٢هـ). عوارف المعارف. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣م.
١٧. الشعراني، العارف بالله عبد الوهاب بن أحمد (ت ٩٧٣هـ). الطبقات الكبرى (لوائح الأنوار في طبقات الأخيار). تحقيق: خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.
١٨. الشعراني، عبد الوهاب (ت ٩٧٣هـ). الطبقات الكبرى. تحقيق: خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
١٩. صليبا، جميل. (١٩٨٢). المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
٢٠. طاشكيري زاده، عصام الدين أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ). الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. تحقيق: أحمد صبحي الفرات. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٥م.
٢١. العليمي، مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ). الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل. تحقيق: محمود الكعابنة. عمان: مكتبة دنديس، ١٩٩٩م.
٢٢. فتوح الغيب. تحقيق: فريد المزدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.
٢٣. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
٢٤. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥هـ). الرسالة. تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٥م.
٣. ابن باكويه الشيرازي (وصاحب أخبار الحلاج). أخبار الحلاج. نشرة لويس ماسينيون وبول كراوس. باريس: مطبعة القلم، ١٩٣٦م. (وأعدت طبعه: منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٥م).
٤. ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن (ت ٦٣٢هـ). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين). تحقيق: جمال الدين الشيال. القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٤م.
٥. ابن عجيبة الحسني، أحمد بن محمد (ت ١٢٢٤هـ). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. تحقيق: أحمد عبد الله القرشي. القاهرة: مطبعة حسن عباس زكي، ١٩٩٩م.
٦. ابن عجيبة، أحمد (ت ١٢٢٤هـ). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. تحقيق: أحمد القرشي رسلان. القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي، ١٩٩٩م.
٧. ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي (ت ٦٣٨هـ). الفتوحات المكية. بيروت: دار صادر، (د.ت).
٨. ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد (ت ٧٠٩هـ). الحكم العطائية (متن الحكم بشرح ابن عباد الرندي). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
٩. أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ). الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق: إبراهيم الزبيق. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.
١٠. التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله (ت ٢٨٣هـ). تفسير ٢١. العليمي، مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ). الأئس الجليل التستري. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م.
١١. الجيلاني، الغوث عبد القادر بن موسى (ت ٥٦١هـ). الفتح ٢. الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ). الرباني والفيض الرحماني. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٩م.
١٢. الدسوقي، القطب إبراهيم بن أبي المجد (ت ٦٧٦هـ). ط١، ١٩٩٨م.
٢٤. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥هـ). الرسالة. تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٥م.

٢٥. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت ٤٦٥هـ). لطائف الإشارات. تحقيق: إبراهيم البسيوني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠٠٠م.
٢٦. الكركي، جلال الدين أحمد بن محمد (ت ٩١٢هـ). لسان التعريف بحال الولي الصالح سيدي إبراهيم الدسوقي. تحقيق: أحمد عز الدين. القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٦م.
٢٧. الكيلاني، ماجد عرسان (ت ٢٠١٥م). هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. دبي: دار القلم، ط٣، ٢٠٠٢م. (دراسة حديثة لربط الجهد التربوي للزوايا بجيش التحرير).
٢٨. مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦١م.
٢٩. النبهاني، يوسف (ت ١٣٥٠هـ). جامع كرامات الأولياء. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٢م.
٣٠. النبهاني، يوسف بن إسماعيل (ت ١٣٥٠هـ). جامع كرامات الأولياء. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٢م.
- اليافعي، الإمام عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.